بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إرشاد الساري

شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني

فَضِيلَة الشَّيْخِ

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ صَلَاح بْنِ مُحَمَّد غَانِم

(رحمه الله)

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

- أمَّا بَعْدُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب ٧١]

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- أَمَّا بَعْدُ:

فعلى قدر تحقيق التوحيد تأتي الصفات الحسنة والأخلاق الفاضلة، ولما كان النبي ﷺ في كمال التوحيد وفي تمامه، كان في كمال الأخلاق الفاضلة والسلوك المستقيمة، فقال ربه تبارك وتعالى في شأنه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[القلم ٤]، فخلق المرء مرتبطٌ بتوحيده؛ لأن التوحيد أصله في القلب، وأثره في الجوارح ضرب الله رب العالمين له مثلًا فقال سبحانه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾[إبراهيم٢٤]، فبين الله رب العالمين أن الكلمة الطيبة التي هي: لا إله إلا الله، إذا استقرت في القلب أخرجت من طيب القول وصالح العمل ما تقر به عيون من يرى ذلك الموحد، من عيون حفظته، ومن عيون أهله وإخوانه، ومن عيون جيرانه وأصحابه، وما ذاك إلا لأنه لما قرت عينه بالله قرت به

كل عين، ولما آنس بالله آنس به كل مستوحش، ولما آمن بالله أَمِنَ به كل خائف.

فعلم التوحيد عباد الله من أعظم العلوم، ومن أعظم الأعمال، ومن أشرف المهمات، ولما لا وهو السبب الذي خلق الله سبحانه من أجله الإنس والجن، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات٥٦]، قال الإمام القرطبي رحمة الله عليه: (قيل إن هذا خاص فيما سبق في علم الله تعالى أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون).[1]

فكأن هؤلاء الذين لا يوحدون الله، هؤلاء لم يكونوا هم المعنيين بالخلق، ولكن الله رب العالمين، خلق السماء والأرض، وخلق الزرع والشجر، وخلق البر والبحر كل ذلك لإعانة أوليائه على طاعته، لإعانة عباده المؤمنين على الوصول إلى جنته.

---

[1] تفسير القرطبي، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م،ج١٧/ص٥٥.

والتوحيد إنما هو بناء له أركان، لا يقوم البناء ويعلو بصاحبه حتى يصل به إلى الجنان، حتى يصل به إلى الفردوس الأعلى من الجنة إلا إذا أقامه المرء على أركانه.

فالنَّاسُ جميعًا يدَّعون التوحيد، ولكن لكل دَعْوى حقيقة، لكلِّ دعوى أُصول وثوابت، دعوة التوحيد إنَّمَا هي تلك الدعوى التي تقوم على أَرْكَانٍ ثَلاثة:

الركن الأول : توحيد الربوبية.

الركن الثاني : توحيد الإلهية.

الركن الثالث : توحيد الأسماء والصفات.

فأما توحيد الربوبية: فهو إفراد الله تعالى بأفعاله، كالخلق والملك والتدبير، والإحياء والإماتة والرزق ونحو ذلك، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر لهذا الخلق إلا الله، ولا محيي للكائنات إلا الله، ولا مميت لهذا الحي إلا الله، ولا رازق لكل مرزوق إلا الله، لو أن الناس

علموا ذلك للجئوا إلى الله فيما يريدون، للجئوا فيما يحبون، فهذا هو التوحيد الأول.

وهذا التوحيد كان المشركون يؤمنون به، ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾[الزخرف٩] فكانوا يؤمنون بالله خالقًا، وكانوا يؤمنون بالله ربًّا، حتى أنهم لما عوتبوا في عبادة الأصنام قالوا: ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾[الزمر٩].

والتوحيد الذي يحبه الله رب العالمين، وفيه المفاصلة بين المؤمنين والكافرين؛ هو **توحيد الإلهية**، الذي يحقق الغاية من الخلق ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[الذاريات٥٦]، وهو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولًا وعملًا، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا من كان كما قال، قال

سبحانه: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا** ﴾[الإسراء٢٣] هذا النوع هو الذي أرسل الله به الرسل، فما من نبي أرسله الله إلا قال لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف٦٥].

والنبي ﷺ ربط الفلاح بهذا الركن من أركان التوحيد فقال لأصحابه وقال لأهل مكة: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا: لا إله إلا الله يدين لكم بها العرب والعجم جميعًا»[1]، فلا فلاح إلا بتوحيد الله بتوحيد عبادته ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[الأنعام]، الصلاة لله، والزكاة لله، والصيام لله، والحج لله، وبر الوالدين لله، وإحسانٌ للجار لله، وأمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكر كل ذلك لله.

[1] تخريج سير أعلام النبلاءمن رواية ربيعة بن عباد الديلي(٥١٧/٣).

وأما النوع الثالث من أنواع التوحيد: فهو **توحيد الأسماء والصفات**: ربك الذي تعبده لا يتم تمام توحيدك له حتى تعرفه بأسمائه وصفاته، حتى تعرفه بأفعاله وأقداره، فهو إفراد الله عز وجل بما له من الأسماء والصفات، فيعتقد العبد أن الله لا مماثل له في أسمائه وصفاته، تعلم علم يقين أن الله ليس كمثله شيء، فكل ما خطر عن الله ببالك فالله على خلاف ذلك.

فهو الخالق كيف يحيط المخلوق به، وهو العلي كيف يحيط الدني به، وهو سبحانه الذي وسع ملكه السموات والأرض، سبحانه وسع كرسيه السموات والأرض، فكيف بمخلوق أن يصل إلى إدراك كنه الله رب العالمين.

فتوحيد الله بأنواعه الثلاثة هذا هو حقيقة العبادة، توحيد الله بأنواعه الثلاثة حقيقة عبادة الله، وهذا الأمر هو أول أَمْرٍ أَمَرَ الله به في كتابه، فإنك إذا أردت أن تقرأ القرآن نظرت في أوامر الله تجد أن أول أمر الله، وأول نداء نادى الله به على خلقه قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾

[البقرة٢١]نداء إلى العربي والعجمي، نداء إلى العظيم والحقير، نداء إلى الصغير والكبير، نداء إلى المؤمن والكافر، نداء إلى البر والفاجر، نداء إلى اليهودي والنصراني والمجوسي، : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ** ﴾ [البقرة٢١]حققوا العبادة الحقة، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، والبراءة مما يضاد ذلك وينافيه.

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة٢١]، العبادة تقيك من ضيق الصدور، العبادة تقيك من وحشة القبور، العبادة تكون سببًا في وصولك إلى المأمول، فمن أراد شيئًا فلا سبيل للوصول إليه إلا عن طريق عبادة الله، ومن خاف شيئًا فلا سبيل أن يصرف عنه إلا عن طريق عبادة الله؛ لأن المرء إذا صار من عباد الرحمن فقد صار من أوليائه، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فبين الله أعظم فريضة، وأمر الله بأعظم أمر وهو توحيد الله، وأخبر الله رب العالمين أن التوحيد لا يكون إلا بنبذ الشرك، فلا يكفي أن يكون المرء موحدًا غير نابذ للشرك، ولكن أن تعبد الله وحده وألا تشرك به شيئًا وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [النحل٣٦]، انظر إلى المشركين من لدن آدم عليه السلام إلى يوم الناس هذا، ماذا فعل الله بقوم نوح لما عبدوا الأصنام، وماذا فعل الله بقوم إبراهيم لما عبدوا الأوثان، وماذا فعل الله رب العالمين بقوم لوط لما استباحوا البهتان ووقعوا في إتيان الذكران، هؤلاء جميعًا أهلكهم الله رب العالمين.

والتوحيد هو أساس دين الإسلام العظيم، وهو الدين الذي شرعه الله العزيز الحكيم، التوحيد هو أصل الإسلام وبناءه، هو أصل

الإسلام وقاعدته، ولا قيام للإسلام إلا بإقامة أعظم ركن في أركان الإسلام، والذي ينظر في هدي النبي ﷺ في دعوته يجد أن النبي ﷺ علم الصحاب التوحيد قبل أن يعلمهم القرآن، وعلم الصحابة التوحيد قبل أن يقيم فيهم الأحكام، وعلم النبي ﷺ الصحابة التوحيد قبل أن يهتم بأمر الأوطان والبلدان، فلما أقاموا العقيدة الحقة أقام الله بهم العالم كله، أقاموا أحكام الشريعة فكان الحكم ينزل من السماء مجرد أن يصل إلى الصحابة يتحول إلى واقع ملموس.

وفي ذلك تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: (رحم الله نساء الأنصار لما نزلت آيات الحجاب وكن في المسجد، وكانت الواحدة منهن تلبس ثوبين فخلعت أحدهما ثم اعتجرت به وعدن إلى بيوتهن كأنهن الغربان السود)[1].

ولما نزلت تحريم الخمر ما بمجرد أن علم الصحابة تحريمها أنزلوا الأكواب من على أفواههم، بل ملئوا السكك لما أرقوها منها فيها من

[1] تفسيرابن كثير، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ،ج٣/ص٤٣.

ديارهم، وهذا كله إن دل فإنما يدل على أثر التوحيد في إقامة الأحكام.

ودين الإسلام يقوم على التوحيد فلا اعتبار بدين لا يقيم صاحبه توحيد العزيز المجيد، ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾[آل عمران١٩]، أي: إن الدين المقبول عند الله إنما هو دين الإسلام العظيم، ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾[الشورى١٤]، يعني: أهل الكتاب يعرفون أن الإسلام هو الدين الخاتم لجميع الرسالات، ولكنهم حرصوا على الرياسات، وحرصوا على جمع الأموال، فدفعهم ذلك إلى جحد الإسلام وإنكاره، وحسدوا النبي ﷺ على ما آتاه الله من نعمة الرسالة فانظر إلى جزاءهم ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[آل عمران١٩]، ولكي يقبل إسلام المرء لابد أن يقوم بالوفاء بالتوحيد، ولا يصح ولا يقبل إسلام المرء بدون تحقيق التوحيد،

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج»[1] فهذه أركان هذا الدين.

والتوحيد هو ركيزة الدعوة وأول مقاصدها، وأجل أهدافها، فعن ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه قال: لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى أهل اليمن ليدعوهم إلى الله تعالى فقال له النبي ﷺ معلمًا ومبينًا، وآمرًا ومرشدًا: «إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم وكرائم أموال الناس»[2]، فانظر كيف أن النبي ﷺ جعل الدعوة إلى التوحيد أول ما ينبغي أن يدعُ الدعاة إلى الله إليه.

---

[1] أخرجه البُخاريُّ في «صحيحه» (٨، ٤٥١٥)، ومُسلِمٌ (١٦)، والنَّسائيُّ (٨/ ١٠٧، ١٠٨)، والتِّرمذِيُّ (٢٦٠٩).

[2] أخرجه البخاري (١٤٩٦) واللفظ له، ومسلم (١٩).

وهذا الذي نفتقده يركز كثيرٌ منا على الآفات، ولا يؤصل أعظم الأصول في قلوب الناس وهو توحيد الله عز وجل، فما من خلل تراه إلا لأن التوحيد لم يقم على أساسه، ولم تتوافر فيه أركانه.

والحديث الشريف يرسخ قاعدة للدعاة إلى الله تعالى بأهمية إقامة التوحيد، ونبذ أسباب الشرك، فهذا النهج هو الأساس في اعتناق الإسلام، وقبول العبادة من العباد، ويترتب عليه الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

إن التوحيد شرطٌ لقبول العمل الصالح، والعمل لا يكون صالحًا ولا مقبولًا إذا كان منافيًا للتوحيد، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[الكهف ١١٠].

لـذا فالتوحيـد والإخـلاص في تحقيقـه هـو السـبب لقبـول العمـل، ودخـول الجنـة برحمـة الله سـبحانه، والقـرآن ملـيء بهـذه الأدلـة، وعلـى حبوط أعمـال الكـافرين والمشركين، وهـم الـذين لم يمتثلوا لأمـر الله العزيز الحكيم بتوحيده والإخلاص في عبادته، النبي ﷺ قد بين أن الله غني عن الشرك: فمن عمل عملًا فليطهر فإنه لا يرفع إلى الله منه إلا ما أريد به وجه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1]، فالمرء ينبغي عليه أن يجتهد في إخلاص عمله؛ لأنه يأتي يوم القيامة أقوام بأعمال بيض كجبال تهامة فإذا ما رآها وفرح بها وأيقن أنه إلى الجنة من أهلها، إذ بالله رب العالمين يقول لملائكته يا ملائكتي انثروا هذه الأعمال واجعلوها أدراج الرياح، فتقول الملائكة: يا رب لقد عملها وسطرناها عليه، فيقول الله عز وجل عملها ابتغاء غيري وأنا أغنى الشركاء عن الشرك، وفي ذلك يقول الله

[1] أخرجه مسلم(٢٩٨٥).

عز وجل: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾[الفرقان٢٣].

وعن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: يا رسول الله ابنُ جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه، فقال ﷺ: «لا ينفعه فإنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[1]، يعني: لم يكن موحدًا، ولم يكن مسلمًا.

لما كان هذا شأن التوحيد، وشأن الدعاة إلى الله، فهذه رسالة إمام من الأئمة، وهو الإمام العلامة الفقيه القدوة عالم أهل المغرب أبو مُحَمَّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي، وهذه رسالة مهمة في معرفة أصول الدين، وعقيدة أهل الحديث وطريقتهم، هذه الرسالة فيها ما فيها من العلم النافع قام بتلخيصها وشرحها أخونا الفاضل: أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد سعيد رسلان، وهو ابن شيخنا العلامة مُحَمَّد بن سعيد

[1] أخرجه مسلم (٢١٤).

بن رسلان، وانظر إلى أثر الأب في ولده، فإن الولد يتأثر بأبيه، وكما قيل:

وينشئ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه[1]

وإن الرجل يعمل في الطيب فإذا ببيته يكون مطيبًا، يعمل الرجل في الطيب فيستطيب كل من حوله، ويعمل الرجل فيما يندى له الجبين فيتأثر كل من حوله به، لذا ينبغي على المرء أن يجتهد في تنشئة ولده على أن يكون من أهل العلم ومن الناظرين فيه، وإذا رآك ولدك وأنت منشغل بالعلم، وأنت قائم عليه فإن ذلك يدفعه إلى أن ينشغل بالعلم وأن يكون من أهله؛ لأن فعل رجل في ألف رجل أجدى من قول ألف رجل في رجل، وكما قالوا:

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى وتزعم أن قلبك قد عصاك

يعني: إذا لم تكن أنت قادرًا على إنجاء نفسك، فكيف تسعى إلى أن تنجي غيرك، إذا لم تكن أنت قائمًا على عقيدة أهل السنة والجماعة

[1] من شعر أبو العلاء المعري.

فكيف تطمع أن ينجو ولدك باعتقاد أهل السنة والجماعة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يستقيم العود والظل أعوج.

وقد قالوا قديمًا: إن من الحماقة أن تصلح العالم من حولك وتنسى الفوضى في داخل نفسك، رجلٌ لا يراه ولده إلا أكولًا شروبًا إلا مهتمًا برياشه وأساسه، إلا قائمًا على عمله وتثمير ماله، لا يراه قارئًا لكتاب، ولا يراه قائمًا بليل، ولا يراه صائمًا بنهار، ولا يراه آمرًا بمعروف، ولا يراه ناهيًا عن منكر، ولا يراه مهتمًا بأمور المسلمين، فكيف بهذا الولد أن يقبل على القرآن العظيم، أو أن يقبل على العلم المتين، أو أن يكون من الآمرين، أو أن يكون من القائمين، أو أن يكون من الصائمين، فمن أراد أن يربي ولده فعليه أن يربيَّ نفسه، من أراد أن يدفع ولده إلى الله رب العالمين فليدفع بنفسه أولًا.

وهذا مثالًا من الأمثلة: شيخنا العلامة الرسلان هذا ولده وهذا نتاجه وهذا بذله وجهده، فهذا أثر الوالد في الولد، وهذا فعل الوالد في الولد، وما كان لأخينا عبد الله أن يذهب ولا أن يجيء لولا أن الله

رب العالمين قيد له أباه، وهكذا ولدك يربى في مجتمعك، والمجتمع اليوم يسوق الأبناء إلى الانحراف، المجتمع اليوم يسوق الأبناء إلى الليبرالية والعلمانية، المجتمع اليوم يسوق الأبناء إلى الشهوات والشبهات، والولد في بوطقتك أنت، والولد في مسئوليتك أنت، فماذا أنت صانع؟! مهما قمت بتوجيهه ولم توجه نفسك، مهما قمت بتعليمه ولم تعلم نفسك، مهما قمت بحياطته وأنت غير محتاط لنفسك فإنما هو تضييع الأوقات، وإنما هو سفاسف من الأقوال وفي المنتهى لا يتأثر الولد إلا فيما يعانيه من والده.

هذه الرسالة لعالمٍ من علمائنا، وإمام من أئمة الشأن في ديننا، وهو الإمام العلامة الفقيه القدوة عالم أهل المغرب أبو مُحَمَّد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النَّفْذِي القيرواني المالكي، وقد لقب بالنفذي نسبة إلى نفذة وهي قبيلة كبيرة من قبائل إفريقيا، ولد بالقيروان سنة ثلاثمائة وعشر من هجرة النبي العدنان على ما ذهب عليه أكثر المؤرخين، وبها نشأ وتربى وتلقى علومه الأولية على كبار شيوخه، وكان مؤدبه الشيخ

الزاهد العابد مُحْرِز بن خَلف التونسي، وقد تفقه رحمه الله على أكابر شيوخ القيروان وعلمائها الكبار وأكثر من الأخذ والسماع عنهم حتى ظهر نبوغه ونجابته في سن مبكرة، حتى إن المترجمين له قد ذكروا أنه قد ألف الرسالة سنة ثلاثمئة وسبع وعشرين وكان له آن ذاك سبعة عشرة عامًا، وذلك مما يشهد له بالإمامة والرسوخ في مذهب مالك.

انظر إلى هذا الإمام في سنه، وانظر إلى أبنائنا في أعماره فهذا عمرٌ ما زال الولد يسعى في غيه ولعبه، يسعى في طيشه ونزقه، وما ذاك إلا لأنه فقد البيئة التي يتربى فيها، لماذا لا نجعل بيئة نربي فيها أبنائنا؟ لماذا لا نجعل بيئة نربي فيها نسائنا؟ لماذا لا نجعل بيئة نربي فيها بناتنا؟ لماذا ندع أبنائنا للشوارع؟ وندع أبنائنا لصحبة السوء؟ وندع أبنائنا لأجهزة تحرفهم عن سواء الصراط؟!

نشأته: نشأ منذ صغره على طلب العلم، وحاز رئاسة الدنيا والدين كما قال القاضي عياض، ورحل إليه من الأقطار ونجب أصحابه، وكثر الأخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب المالكي، وملء البلاد

بتواليفه – أي مما ألفه – حتى إنه كان يعدُّ مالكًا الصغير، حتى قيل: إنه ألف الرسالة وعمره سبع عشرة سنة في عام سبع وعشرين وثلاثمئة من الهجرة.

قال الذهبي رحمه الله: (كان على طريقة السلف في الأصول لا يدري الكلام ولا يتأول)[1].

وأما شيوخه: تتلمذ على جمٍّ غفير من العلماء والفقهاء، ونذكر بعضًا ممن أخذ عنهم أو سمع منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فقد أخذ عن أبي عبد الله مُحَمَّد بن مسرور العَسَّال المشهور بعلمه وصلاحه توفي سنة ستٍ وأربعين وثلاثمئة، وكذلك أخذ مُحَمَّد بن أحمد بن تميم القيرواني مؤلف «طبقات علماء إفريقية» وهو مشهور بالفقه والصلاح، عالمٌ بالسنن وتاريخ الرجال جمَّاعٌ للكتب وقد شارك في جهاد العبيديين توفي شهيدًا سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمئة، وكذلك أخذ عن مشايخ كثر.

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ١٢).

فهكذا شأن من يريد العلم، من يريد العلم يسعى إلى النسل من معينه يأخذ من علماءه وفقهائه، وأما الذي يقف على كتاب يقرأه، أو يقف على رأي يرتأيه، أو يرضى لنفسه أن يكون متابعًا غير مجتهد فهذا لن ينبغ ولن تظهر له ظاهرة.

تلاميذه: تخرج على يديه الجمع الغفير من العلماء، وكانت لديه هذه العقلية المتفتحة، وحريٌّ أن يتخرج على يديه الكمُّ الهائل من العلماء وطلبة العلم ممن حظوا بشرف الدراسة على يديه، من هؤلاء: أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بالبراذعي، ومنهم أيضًا أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني القيرواني، ومنهم أبو مُحَمَّد مكي بن أبي طالب القيسي، ومنهم أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي، وغيرهم كثير.

وأما مكانته: فقد لهجت ألسنة العلماء من أهل عصره ومن بعده بمدحه والثناء عليه، فوصف رحمه الله بعدَّة أوصافٍ جليلة من تلك الأوصاف: جامع مذهب مالك وشارح أقواله، ثاني الشيخين اللذين

لولاهما لذهب المذهب – أي: لذهب مذهب الإمام مالك – وفي ذلك يقول ابن ناجي: كان يقال لولا الشيخان والمحمدان والقاضيان لذهب المذهب.

فالشيخان أبو مُحَمَّد بن أبي زيد، وأبو بكر الأبهري.

والمحمدان: مُحَمَّد بن سحنون، ومُحَمَّد بن المواز.

والقاضيان: أبو مُحَمَّد عبد الوهاب، وأبو الحسن بن القصار.

قال الإمام مالك: لا يزال الناس على خير ؟؟؟ ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر.

ما يزال الناس بخير ما توارثوا العلم؛ لأن العلم سبب بقاء الأديان، والعلم هو سبب أمان الأوطان، والعلم هو سبب بيان الحلال من الحرام، فالعلم العلم عباد الله.

ومن جملة ما وصف به تلك الأوصاف التي وصفه بها المترجمون له: أنه كان يلقب بمالكٍ الصغير، ويلقب بخليفة مالك، وقد أبان لنا

العلامة النفراوي عن سبب هذه التسمية فأقول: ومن أعظم أوصافه علو سنده لأنه كان يروي عن سحنون بواسطة عن ابن القاسم بواسطتين، وعن مالك بثلاثة، ولهذا لقب بمالك الصغير.

وقد شهد له أهل العلم بالإمامة والرياسة الدينية، من هؤلاء القاضي عياض حيث يقول: كان إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله، وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، كتبه تشهد له بذلك، فصيح اللسان، ذا بيان ومعرفة بما يقوله، ذابًّا عن مذهب شيخه مالك، قائمًا بالحجة عليه، بصيرًا بالرد على أهل الأهواء، ويجمع إلى ذلك صلاحًا تامًّا وورعًا وعفة، وقد حاز رياسة الدين والدنيا، وهو الذي لخص المذهب، وضمَّ نشره، وذب عنه، وملئت البلاد تواليفه، عارض كثير من الناس أكثرها فلم يبلغوا مداه مع فضل السبق، وقد عرف قدره الأكابر.

وقال أبو الحسن القادسي، قال فيه: كان أبو مُحَمَّد إمامًا مؤيدًا موثقًا به في درايته وروايته.

وقال الحافظ الذهبي: الإمام العلامة القدوة عالم أهل المغرب أبو مُحَمَّد القيرواني، ويقال له: مالك الصغير، وكان أحد ممن برز في العلم والعمل، وكان رحمه الله على طريقة السلف في الأصول لا يدري الكلام – والكلام المقصود هنا: هو الرأي، إعمال الرأي في الشرع – ولا يتأول، وكان ورعًا حسن السمت، وقورًا، مرتفع الهمة، صالحًا فاضلًا، سريع الانقياد للحق، كريمًا شجاعًا، كثير البذل للفقراء والإنفاق عليهم.

له كتبٌ كثيرة منها: كتاب النوادر والزيادات في نحو المائة جزء، وكذلك اختصر المدونة، وكذلك كتاب الاقتداء بمذهب مالك، وكتاب إعجاز القرآن، ورسالة في الرد على القدرية، ومقدمة رسالته في التوحيد التي هي ضمن كتابه الرسالة في فقه مذهب الإمام مالك، والتي تعتبر مقدمة في تصنيفه في الفقه المالكي.

فيا أخا الإسلام هؤلاء علماؤنا قد ماتوا وبقيت آثارهم، وأنا وأنت سنموت فهل نموت ولا يبقى لنا أثر، ولا يبقى لنا في الحياة دور، ولا

يبقى لنا في الحياة عمل يشهد علينا بعد مماتنا يذكر سيرتنا ونحن في قبورنا، يكون سببًا في زوال ما نعانيه من تلك الأمور الحادثة، يكون سببًا في تغيير ما أفسده المفسدون، وهذا كله يتوصل إليه بالعلم، فاحرص عبد الله على العلم، فإن أعظم ما تحصله في دنياك وأعظم ما ترجوا به الأجر في أخراك هو العلم.

فمن كان لله كما يريد كان الله رب العالمين له فوق ما يريد، «من تقرب إلى الله شبرًا تقرب الله عز وجل إليه ذراعًا، ومن تقرب إلى الله ذراعًا تقرب الله عز وجل إليه باعًا، ومن أتى الله عز وجل يمشي أتاه الله رب العالمين هرولة»[1].

ومن قرأ حرفًا من كتاب الله أعطاه الله رب العالمين عليه عشر أضعاف أضعافه إلى أضعاف لا يعلمه إلا الله، فنعم الرب ربنا لو أطعناه، نعم الرب ربنا لو عبدناه لعشنا الحياة الحقة، ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[يونس٦٢].

---

[1] أخرجه مسلم (٢٦٧٥) باختلاف يسير.

والإيمان: هو العلم النافع الذي يورث الإنسان خشية الله عز وجل «يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن فإن الله عز وجل يراه»[1]، ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[العنكبوت٦٢]، وسبيل الوصول إلى الطريق المأمول في معرفة الرب الكريم المجيد، فتعالوا بنا نصل إلى الله، بتعلم آياته، بتعلم أسمائه وصفاته، تعالوا بنا نصل إلى الله من خلال النظر فيمن وصولوا إليه.

وهذا إمامٌ من أئمة العلم، إمام المغرب العربي ابن أبي زيد القيرواني رحمة الله عليه يكتب رسالة في العقيدة السنية من أجل أن يصل الأفراد من أمة مُحَمَّد إلى رب البرية.

[1] أخرجه البخاري(٤٧٧٧)من رواية أبو هريره باختلاف يسير.

متن الرسالة

قال أبو مُحَمَّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمة الله عليه، ورضي عنه وأرضاه:

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوَّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه وما يسَّره له من رزقه، وعلَّمه ما لم يكن يعلمُ، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا، ونبَّهه بآثار صنعته وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخِيرة من خلقه، فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدلِه، ويسَّر المؤمنين لليُسرى، وشرح صدورهم للذِّكرى، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلُوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رُسُله وكتبه عاملين، وتعلَموا ما علَّمهم، ووقفوا عند ما حدَّ لهم، واستغنوا بما أحلَّ الله لهم عمَّا حرَّم عليهم [1].

(١) وكان من عادة علمائنا عليهم الرحمة أنهم لا يكتبون العلم إلا بسؤال سائل أو بإجازة مجيز، فكانوا لا يتجرؤون على التصنيف، فالعقيدة الواسطية كتبها ابن تيمية رحمه الله لما سأله قاضٍ من قضاة واسط، والعقيدة التدمرية كتبها ابن تيمية لبعض أناس لما طلبوا منه ذلك من تدمُر، وهكذا كان علمائنا عليهم الرحمة، وكتاب الداء والدواء وهو من أعظم كتب ابن القيم رحمه الله ما كتب ذلك الكتب وكسره إلا بعد أن سئل سؤال.

أما بعد:

أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جُملة مختصرةً من واجب أُمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوبُ، وتعمله الجوارِح، وما يتصلُّ بالواجب من ذلك من السُّنن من مؤكدَّها ونوافِلها ورغائبها، وشيءٍ من الآداب منها، وجُملٍ من أصولِ الفقهِ وفنونِهِ على مذهب الإمام مالك بن أنس – رحمه الله تعالى – وطريقتِه، مع ما سهَّل سبيل ما أشكَلَ من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقِّهين، لما رغِبتَ فيه من تعليمِ ذلك للوِلدان، كما تُعلِّمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهمِ دين اللهِ وشرائعِهِ ما تُرجى لهم بركتُه وتُحمدُ لهم عاقِبتَهُ، فأجبتُك إلى ذلك لِمَا رجوتُهُ لنفسي ولك من ثوابِ مَن علَّم دين الله أو دعا إليه [1].

(١) فانظر عبد الله إلى هذا المصنف إنما كان لولدان المسلمين، الذين يتعلمون القرآن العظيم فيجمعون بين علم القرآن والإيمان، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتعلمون الإيمان قبل القرآن، فلما تعلموا الإيمان ازدادوا بعد ذلك إيمانًا بالقرآن.

قال رحمه الله:

واعلم أن خيرَ القلوبِ أوعاها للخيرِ، وأرجى القلوبِ للخيرِ ما لم يسبقِ الشرُّ إليه، وأولى ما عُنِي به الناصحون ورغِبَ في أجرهِ الرَّاغبون إيصالُ الخيرِ إلى قلوبِ أولادِ المؤمنين ليرسَخَ فيها، وتنبيهُهُم على معالمِ الديانة، وحدود الشريعة، ليتريضوا عليها وتكون لهم دينًا ومنهاجًا وما عليهم أن تعتقده من الدين قلُوبهم، وتعملَ به جوارحُهم، فإنه رُويَ أنَّ تعليمَ الصِّغار لكتاب الله يُطفِئُ غَضبَ اللهِ، وأنَّ تعليمَ الشيء في الصِّغر كالنَّقش في الحجر.

وقد مثَّلتُ لك من ذلك ما ينتفعون – إن شاء الله – بحفظه، ويشرُفُون بعلمِهِ، ويسعدُون باعتقادِهِ والعملِ به، وقد جاء أن يُؤمروا بالصلاةِ لسبعِ سِنين، ويُضربوا عليها لعشرٍ، ويُفرقَ بينهم في المضاجعِ، فكذلك ينبغي أن يُعلَّموا ما فرض اللهُ على العباد من قولٍ وعملٍ قبل بُلُوغِهِم ليأتي عليهم البلوغُ وقد تمكَّن ذلك من

قلوبِهم، وسكنتْ إليه أنفُسُهم، وأنِستْ بما يعملون به من ذلك جوارحُهُم.

وقد فرض الله سبحانه وتعالى على القلب عملًا من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملًا من الطاعات.

وسأُفصِّلُ لك ما شرطتُ لك ذكرهُ بابًا بابًا؛ ليقرُب من فَهمِ مُتَعلِّمِه – إن شاء الله تعالى –، وإيَّاه نستخيرُ وبه نستعينُ، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ نبيه وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

فهذه مقدمته بدأ بها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، وهكذا طريقة القرآن العظيم، وهكذا ما دلنا علينا النبي الأمين، ثم ذكر ما ينبغي علينا من تعليم أبنائنا الصغار ما يعتقدونه حتى تأتي أعمالهم على وفقِ معتقدهم؛ لأن العمل له ظاهر وله باطن، فأما ظاهر

العمل ما يجري على الجوارح، وأما باطن العمل ما يجري على القلوب، والله رب العالمين نظره إلى القلوب قبل أن ينظر إلى الأعمال، كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، فنظر الله إلى القلب سابقٌ على نظر الله إلى العمل، ونظر الله إلى العمل هذا هو مراده من النظر إلى خلقه.

والإيمان كما عرفه علمائنا عليهم الرحمة: نطق باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان؛ ثم بعد أن قدم مقدمته، تناول أركان الإيمان.

قال رحمه الله:

من ذلك: الإيمانُ بالقلب، والنطقُ باللِّسان: أن اللهَ إلهٌ واحدٌ، لا إله غيرُهُ، ولا شبيهَ له، ولا نظيرَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له، ولا

صاحبةَ لهُ، ولا شرِيك لهُ، واحدٌ في أسمائه، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أقواله وأفعاله، ليس كمثله شيء.

ليس لأوَّليَّته ابتداءٌ،فهو أول بلا بداية، ولا لآخريَّتهِ انقضاءٌ فهو آخر بلا إنتهاء، لا يبلغُ كُنه صفتِهِ الواصفونَ، ولا يُحيطُ بأمرِهِ المتفكِّرون، يعتبر المتفكِّرون بآياته، ولا يتفكَّرُون في ماهيَّةِ ذاته: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

العالمُ الخبيرُ، المدبِّر القديرُ، السميعُ البصيرُ، العليُّ الكبيرُ، وأنَّه فوق عرشِهِ المجيد بذاته، وهو في كل مكانٍ بعلمِهِ، خلَقَ الإنسانَ ويعلمُ ما توسوسُ به نفسُهُ، وهو أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُها، ولا حبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابِس إلا في كتابٍ مبينٍ.

على العرش استوى، وعلى المُلك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفاتُ العُلا، لم يزل بجميع صفاته وأسمائِهِ، تعالى أن تكون صفاتُهُ مخلوقةً، وأسماؤُهُ مُحدَثةً.

كلَّم موسى بكلامِهِ الذي هو صفةُ ذاتِهِ، لا خلقٌ من خلقِهِ، وتجلَّى للجبلِ فصار دكًّا من جلالهِ

وأنَّ القرآن كلامُ اللهِ، ليسَ بمخلُوقٍ فيبيدَ، ولا صِفة لِمخلُوقٍ فَيَنْفدَ.

والإيمانُ بالقَدرِ خيرِه وشرِّه، حُلوِهِ ومُرِّهِ، وكلُّ ذلك قد قدَّرَهُ اللهُ ربُّنا، ومقاديرُ الأُمُورِ بيدِهِ، ومصدرُهَا عن قضائِهِ.

علِمَ كلَّ شيءٍ قبلَ كونِهِ، فجرى على قضاءه قَدَرِهِ، لا يكونُ من عِبَادِهِ قولٌ ولا عملٌ إلَّا عملٌ إلَّا وقد قضاهُ في الأزلِ، وسَبَقَ عِلمُهُ به: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يُضلُّ من يشاءُ فيخْذُلُه بعدلِهِ، ويهْدِي من يشَاءُ فيُوفِّقُهُ بفضلِهِ، فكُلٌّ مُيسَّرٌ بتيْسِيرِهِ إلى ما سَبَقَ من عِلمِهِ وقدرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سعِيدٍ.

تَعَالى اللهُ أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريدُ، أو يكونَ لأحدٍ عَنْهُ غِنًى، أو يكُون خالِقٌ لشيءٍ إلَّا هُوَ، ربُّ العِبَادِ وربُّ أَعْمَالِهِم، والمُقدِّرُ لحَرَكَاتِهِم وسكناتِهِم وآجَالِهِم، الباعث الرُّسُلَ إليهم لإقامَةِ الحُجَّةِ عَليهم.

ثم ختم الرسالةَ والنِّذارة والنُّبُوَّةَ بمحمدٍ نبيِّه وخليله وصفيه ونجيه ﷺ، فجَعَلَه آخِرَ المُرسَلين، بشيرًا ونذيرًا، وداعِيًا إلى الله بإذْنِهِ وسِراجًا مُنيرًا، وأنزَلَ عليهِ كتابَهُ الحكيمَ، وشَرَحَ به دينَهُ القَوِيمَ، وهدى بِهِ إلى الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ.

وأنَّ الساعةَ أتيةٌ لا ريبَ فيهَا، وأنَّ الله يبعثُ من يموتُ، كَمَا بدأَهُمْ يعودون.

وأنَّ الله سبحانه وتعالى ضاعفَ لعبادِهِ المؤمنين الحسناتِ وصفَحَ لهم بالتوبةِ عن كبائرِ السَّيِّئاتِ، وغَفَرَ لهم الصَّغائرَ باجتنابِ الكبائِرِ، وجعَلَ من لم يتُبْ منَ الكبائرِ صائرًا إلى مشيئَتِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومَن عاقبَهُ بنارِهِ أخرجهُ مِنْهَا بإيمانِهِ، فأدخَلَهُ بِهِ جنَّتهُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] ويُخرج منها بشفاعة النبي ﷺ، مَن شفَعَ له من أهلِ الكبائِرِ من أمَّتِهِ.

وأنَّ الله سُبحانه قد خلق الجنَّة فأعدَّها دار خلودٍ لأوليائهِ، وأكْرمهُم فيها بالنَّظرِ إلى وجهِهِ الكريم، وهي التي أهْبطَ مِنهَا آدم نبيَّهُ وخليفتَهُ إلى أرضِهِ بما سبقَ في سابِقِ عِلْمِهِ.

وخَلَقَ النَّار فأعدَّها دار خلودٍ لمن كفر به وألْحَدَ في آياتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، وجعلهم محجوبين عن رؤيته.

وأن الله – تبارك وتعالى – يجيء يومَ القيامةِ والملكُ صفًّا صفًّا، لعرضِ الأُممِ وحِسابِها وعُقوبتِها وثوابِها، وتُوضعُ الموازينُ لوزنِ أعمالِ العباد فمن ثقلت موازينُهُ، فأولئك همُ المُفلِحونَ، ويؤتون صحائفهم بأعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسبُ حسابًا يسيرًا، ومن أوتي كتابه وارء ظهره، فأولئك يصلون سعيرًا.

وأنَّ الصراط حقٌّ، يجُوزُهُ العِبادُ بِقَدرِ أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النَّجاة عليه من نارِ جهنَّم، وقومٌ أوْبقتهُم فيها أعمالُهُم.

والإيمانُ بحوض رسول الله ﷺ، ترِده أُمتُهُ، لا يظمأُ مَنْ شرِبَ منهُ ويُذادُ عنهُ من بدَّل وغيَّرَ.

وأنَّ الإيمانَ قولٌ باللِّسان، وإخلاصٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارح، يزيدُ بزيادةِ الأعمالِ، وينقُصُ بنقصِها، فيكونُ فيها النَّقصُ وبها الزِّيادةُ، ولا يكمُلُ قولُ الإيمانِ إلا بالعملِ، ولا قولَ ولا عملَ إلَّا بنيةٍ، ولا قولَ ولا عملَ ونيةَ إلا بموافقةِ السُّنةِ.

وأنَّه لا يكفُرُ أحدٌ بذنبٍ من أهل القبلةِ.

وأنَّ الشُّـهداءَ أحيـاءٌ عنـد ربِّهـم يُرزقـون، وأرواحَ أهـلِ السـعادةِ باقيـةٌ ناعمـةٌ إلى يـومِ يبعثونَ، وأرواحَ أهـلِ الشَّـقاوةِ مُعذَّبـةٌ إلى يـوم الدين.

وأنَّ المؤمنين يُفتنون في قبورِهم ويُسألُون: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِيـنَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[إبراهيم٢٧].

وأنَّ على العِبادِ حفظةً يكتبون أعمالهم، ولا يسقُطُ شيءٌ من ذلك عن علمِ ربِّهم، وأنَّ مَلَكَ الموتِ يقبضُ الأرواح بإذنِ ربِّه.

وأنَّ خيرَ القرونِ القرنُ الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وأفضلُ الصحابةِ الخُلفاءُ الرَّاشدُون المهديُّونَ: أبو بكر، ثم عُمرُ، ثُمَّ عُثمانُ، ثمَّ عليٌ – رضي الله عنهم أجمعين –.

وألَّا يُـذكرَ أحـدٌ مـن صـحابة الرَّسُـولِ ﷺ إلا بأحسـنِ ذكـرٍ، والإمسـاكُ عمَّـا شـجرَ بينهُم، وأنَّـم أحـقُّ النـاسِ أن يُلْـتمَسَ لهـم أحسنُ المَخارجِ، ويُظنَّ بِهم أحسنُ الظن.

والطاعـةُ لأئمـةِ المُسـلمين مـن ولاةِ أُمـورِهِم وعُلمـائِهم، واتِّبـاعُ السَّـلَفِ الصـالحِ واقتفـاءُ آثارهـم، والاسـتغفارُ لهُـم، وتـركُ المِـراءِ والجدالِ في الدِّينِ، وتركُ ما أحدَثَهُ المحدِثُونِ.

وصلَّى اللهُ على سَيدِّنا مُحمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأَزْواجِهِ وذُريَّتِهِ وسَلَّم تسْليمًا كثيرًا.

ما أحلى الكلام في لفظه، فكيف بمعناه، وما أحلى الكلام في قرائته فكيف بشرحه، وما أحلى الكلام في النظر إليه فكيف باعتقاده، فيا عبد الله هؤلاء علمائنا اندرست آثارهم بأقدامهم وبقيت آثارهم بأقلامهم وأعمالهم، العالم يموت وآثاره لا تموت، وكلماته لا تموت، ومصنفاته لا تموت؛ لأنه أخذ من الحي الذي لا يموت، أخذ من وحي، ووحي الله هو كلامه لا يحرف ولا يبدل ولا ينسخ ولا يغير، فمن أخذ من معين القرآن أعطاه الله رب العالمين ما يتفضل به على الخلق والأنام.

فيا عبد الله العلم العلم، واجتهد في تعلم ما ينفعك، وتمسك به عساه يوم القيامة يرفعك، تمسك به عسى أن يثبتك الله به في قبرك، فإن أول ما يسأل المرء عنه في قبره أن يسأل عن ربه، وأن يسأل عن نبيه، وأن يسأل عن دينه، فكيف حال من لا يعرف له ربًا، ولا يعرف له نبيًا، ولا يعرف له دينًا، حاله من أسوأ الأحوال،

ومآله إلى العذاب والنكال، ومصيره إلى النار والبوار؛ لأنه فرط في حقه، وغبن نفسه، فكان الجزاء من جنس العمل.

وإذا ما نظر الناظر في سورة الآلاء والنعم في سورة الرحمن، عدَّد الله ربُّ العالمين نعمه وأفضاله وآلائه على خلقه، فجعل أعظم النعم التي أنعم الله بها على خلقه أن علمهم القرآن، فقال سبحانه: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ ثم ذكر نعمة الخلق : ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ ثم ذكر نعمة البيان، فأعظم نعم الله على عبده بعد أن أنزل على نبيه كتابه ووحيه أن خلقه وعلمه أن يفصح عما في مكنونه؛ لأنه بالبيان تمايز عن الحيوان البهيم وتمايز عن الحجر الرهين، فأفصح عما بداخله في كلمات واضحات في بيان مسوقٍ في أعظم الألفاظ وأحلى الكلمات، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة»؛ فكم من كلمات تؤثر في القلب وتؤخذ بمجامعه، وكم من أبيات تغير النفس ويشرح الله رب العالمين بها

الصدر، ولا يزال علمائنا عليهم الرحمة يفيضون علينا من البيان في كلامهم، ومن الحكمة في أشعارهم ما يفرح القلب ويبهج النفس، وبعد أن عشنا مع كلمات ابن أبي زيد القيرواني، نعيش مع بعض ممن نظم منظومته فقال.....

نظم الرسالة

الحمدُ لله حمداً ليس مُنحصرا على أياديه ما يخفى وما ظهرَا

ثم الصلاةُ وتسليمُ المهمينِ ما هبَّ الصبَّا فأدرَّ العارضَ المَطرَا

على الذي شاد بنيانَ الهُدى فسَما وساد كلَّ الوَرَى فخراً وما افتخرَا

نبيِّنا أحمد الهادي وعَتْرته وصحبِه كلِّ مَن آوى ومن نصرَا

بعدُ فالعلمُ لم يظفر به أحدٌ إلاَّ سَمَا وبأسباب العُلى ظفرَا

لا سيما أصل علم الدِّين إنَّ به سعادةَ العبد والمنْجَى إذا حُشرَا

وأولُ الفرض إيمانُ الفؤاد كذا نُطقُ اللِّسانِ بما في الذِّكر قد سُطرَا

أنَّ الإلهَ إلهٌ واحدٌ صَمد فلا إله سوى مَن للأنام برَا

ربُّ السموات والأرضين ليس لنا ربٌّ سواه تعالى مَن لنا فطرَا

وأنهُ موجدُ الأشياء أجمعها بلا شريك ولا عَونْ ولا وُزرَا

وهو المُنزه عن ولد وصاحبة ووالد وعن الأشباه والنُّظرَا

لا يبلغن كُنْه وصفة الله واصفهُ ولا يحيط به علماً مَن افتكرَا

وأنَّه أوَّل باق فليس له بدءٌ ولا منتهى سبحان من قدرَا

حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلام له فردٌ سميعٌ بصيرٌ ما أراد جرَى

وأنَّ كرسيَّه وعرشه قـد وسعَا كلَّ السموات والأرضين إذ كبرَا

ولم يزل فوق ذاك العرش خالقُنا بذاته فاسأل الوحيين والفطرَا

إنَّ العلوَّ به الأخبارُ قد وردتْ عن الرَّسول فتابِع مَن رَوى وقرَا

فالله حق على المُلك احتوى وعلى الـ ـعرش استوى وعن التكييف كُن حَذِرَا

والله بالعلمِ في كلِّ الأماكن لا يخفاه شيءٌ سميعٌ شاهدٌ ويرَى

وأنَّ أوصافَه ليست بمُحدَثة كذاك أسماؤه الحُسنى لِمَن ذكرَا

وأن تنْزيلَه القرآنَ أجمعَه كلامُه غيرُ خلق أعجز البشرَا

وحْيٌ تكلّم مولانا القديمُ به ولم يزل من صفات الله مُعْتبرَا

يُتلَى ويُحمل حفظاً في الصدور كما بالحظِّ يُثبِتُه في الصُّحف مَن زَبَرَا

وأن موسى كليمُ الله كلَّمه إلهُهُ فوق ذاك الطور إذ حضرَا

فالله أسمعه مِن غير واسطة من وصفه كلمات تحتوي عِبرَا

حتى إذا هام سُكراً في محبَّته قال الكليم : إلَهي أسأل النَّظرَا

إليك . قال له الرحمن موعظة أنَّي ترانِي ونوري يُدهشُ البصرَا

فانظر إلى الطور إن يثبت مكانته إذا رأى بعضَ أنواري فسوف ترَى

حتى إذا ما تَجلى ذو الجلال له تصدَّع الطورُ من خَوف وما اصطبرَا

وبالقضاء و بالأقدار أجمعها إيمانُنا واجبٌ شرعاً كما ذكرَا

فكلُّ شيء قضاه الله من أزَل طرًّا وفي لوحه المحفوظ قد سطرَا

وكلُّ ما كان من همٍّ و من فَرح ومن ضلال ومن شكران مَن شكرَا

فإنَّه من قضاء الله قدَّره فلا تكن أنت مِمَّن ينكر القدرَا

والله خالقُ أفعال العباد و ما يجري عليهم فعن أمر الإلَه جرَا

ففي يديه مقادير الأمور وعن قضائه كلُّ شيء في الورى صدرَا

فمَن هَدى فبمحض الفضل وفَّقه ومن أضلَّ بعدل منه قد كفرَا

فليس في مُلكه شيءٌ يكون سوى ما شاءه الله نفعاً كان أو ضررَا

و لم تَمُت قطُّ من نفس وما قُتلت من قبل إكمالها الرِّزق الذي قُدرَا

وكلُّ روح رسولُ الموت يقبضُها بإذن مولاه إذ تستكمل العُمُرَا

وكلُّ من مات مسئولٌ ومفتتنٌ من حين يوضعُ مقبرواً ليُختبرَا

و أنَّ أرواحَ أصحاب السعادة في جنَّات عدن كطير يعلق الشَّجَرَا

لكنَّما الشُّهَدا أحيا وأنفسهم في جوف طير حسان تُعجب النَّظَرَا

وأنَّها في جنان الخلد سارحةٌ من كلِّ ما تشتهي تجني بها الثَّمرَا

وأنَّ أرواح من يشقى معذَّبةٌ حتَّى تكون مع الجُثمان في سَقَرَا

وأنَّ نفخةَ إسرافيلَ ثانية في الصُّور حقٌّ فيحيى كلُّ مَن قُبرَا

كما بدا خلقهم ربِّي يُعيدُهم سبحان من أنشأ الأرواحُ و الصُّوَرَا

حتى إذا ما دعا للجمع صارخُه و كلُّ ميْت من الأموات قد نُشرَا

قال الإلَه : قِفوهم للسؤال لكي يقتصَّ مظلُومُهم مِمَّن له قَهَرَا

فيوقَفون ألوفاً من سنينهمُ والشمسُ دانيةٌ والرَّشْحُ قد كثُرَا

وجاء ربُّك والأملاكُ قاطبة لهم صفوفٌ أحاطت بالورى زُمرَا

وجيء يومئذ بالنار تسحبُها خزانها فأهالت كلَّ مَن نظرَا

لها زفيرٌ شديدٌ من تغيظها على العُصاة وترمي نحوهم شرَرَا

ويرسل الله صُحف الخلق حاويةً أعمالَهم كلَّ شيء جلَّ أو صغُرَا

فمَن تلقَّته باليمنى صحيفتُه فهْو السَّعيد الذي بالفوز قد ظفرَا

ومن يكن باليد اليسرى تناوُلها دعا ثُبوراً وللنيران قد حُشرَا

ووزنُ أعمالهم حقٌّ فإن ثقلت بالخير فاز وإن خفَّت فقد خسرَا

وأنَّ بالمثل تُجزى السيِّئات كما يكون في الحسنات الضِّعف قد وفرَا

وكلُّ ذنب سوى الإشراكِ يغفرُه ربِّي لِمَن شا وليس الشركُ مُغتفرَا

وجنَّة الخُلد لا تفنى وساكنُها مخَلَّدٌ ليس يخشى الموتَ والكبرَا

أعدهَّا اللهُ داراً للخلود لِمَن يخشى الإلَهَ وللنَّعماء قد شكرَا

وينظرون إلى وجه الإله بها كما يرى الناس شمس الظهر والقمرا

كذلك النارُ لا تفنى وساكنُها أعدهَّا الله مولانا لمَن كفرَا

ولا يخلد فيها مَن يوَحِّدُه ولو بسفك دم المعصوم قد فَجَرَا

وكم يُنجي إلَهي بالشفاعة مِنْ خير البريّة من عاص بِها سجرًا

وأنَّ للمصطفى حوضاً مسافتُه ما بين صَنْعَا وبُصرَى هكذا ذكرَا

أحلَى من العسل الصافي مذاقتُه وأنَّ كِيزَانَه مثلُ النجوم تُرَى

ولم يَرِدْه سوى أتباع سُنَّته سيماهم أن يُرى التَّحجيل والغُرَرَا

وكم يُنحَّى ويُنفَى كلُّ مبتدع عن وِرْدِه ورجالٌ أحدثوا الغيرَا

وأن جسراً على متن النِّيران يَعبُرُه بسرعة مَن لمنهاجِ الهُدى عبَرَا

وأنَّ إيْمَانَنا شرعاً حقيقتُه قصدٌ وقولٌ وفعلٌ للذي أمرَا

وأنَّ معصيةَ الرحْمن تُنقصُه كما يزيد بطاعات الذي شَكَرَا

وأنَّ طاعةَ أولي الأمر واجبةٌ من الهُداة نجوم العلم والأُمرَا

إلاَّ إذا أمروا يوماً بمعصية من المعاصي فيُلغى أمرهم هَدَرَا

وأنَّ أفضلَ قرن للَّذين رأوا نبيَّنا وبهم دينُ الهُدى نُصرَا

أعِني الصحابةَ رُهبانٌ بليلهمُ وفي النهار لدى الهيّجَا لُيوث شَرَى

وخيرُهم مَن ولِي منهم خلافته والسَّبق في الفضل للصِّدِّيق معْ عُمَرَا

والتابعون بإحسان لهم وكذا أتباع أتباعهم مِمَّن قفى الأثَرَا

وواجبٌ ذِكرُ كلّ من صحابته بالخير والكفُّ عمَّا بينهم شَجَرَا

فلا تخُض في حروب بينهم وقعت عن اجتهاد وكنْ إن خُضتَ معتذِرَا

والاقتداءُ بهم في الدِّين مفتَرَضٌ فاقَتد بهم واتَّبع الآثار والسُّوَرَا

وتركُ ما أحدثه المُحدِثون فكم ضلالة تبعت والدِّين قد هُجِرَا

إنْ الهُدى ما هدى الهادي إليه وما به الكتاب كتاب الله قد أمَرَا

فلا مراء وما في الدِّين من جدلِ وهل يُجادل إلاَّ كلُّ مَن كفرِا

فهاك في مذهب الأسلاف قافيةً نظماً بديعاً وجيزَ اللَّفظ مختصرًا

يحوي مهمّات باب في العقيدة من رسالة ابن أبي زيد الذي اشتهرَا

والحمد لله مولانا ونسأله غفران ما قلَّ من ذنب وما كثرَا

ثمَّ الصلاةُ على مَن عمَّ بعثته فأنذر الثَّقلين الجنّ والبَشَرَا

ودينُه نَسَخ الأديانَ أجمَعَها وليس يُنْسَخُ ما دام الصَّفَا وحرَا

مُحَمَّد خير كلِّ العالَمين ختم النبيّين والرُّسل الكرام جَرَا

وليس من بعده يوحَى إلى أحد ومن أجاز فحَلَّ قتلُه هَدَرَا

والآلُ والصَّحبُ ما ناحت على فنَن وَرْقَا ومَا غرَّدت قُمْريّة سَحَرَا

فهذه أبيات نظمها الناظم، حوى فيها معاني رسالة ابن أبي زيد رحمه الله، وتعالوا بنا إلى بيان ما حوته الرسالة من ألفاظٍ في نثرها وسردها.

* **قال المؤلف رحمه الله:**

بابُ: ما تنطقُ به الألسِنةُ وتعتقده الأفئدةُ من واجبِ أمورِ الديانات، مِن ذلك: الإيمانُ بالقلبِ، والنُّطقُ باللِّسانِ: أن الله إلهٌ واحدٌ، لا إله غيرُهُ، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له.

ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاءٌ، لا يبلُغُ كُنهَ صفتهِ الواصفون، ولا يُحيطُ بأمرِهِ المتفكرون، يعتبرُ المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾[البقرة٢٥٥].

الشرح:

الباب: هو اسمٌ لما يُدخل منه ويخرج.

وفي الاصطلاح: الباب جملة من العلم يشتمل على فصولٍ ومسائل غالبًا، فإذا ما أردت أن تصنف مصنفًا فانظر إلى أبوابه العظام، ثم

انظر إلى كل باب إلى كم فصل سينقسم، ثم انظر إلى الفصول فقسِمها إلى مطالب، ثم انظر إلى المطالب فقسم كل مطلبٍ إلى مسائل، هكذا يعرض العلم، لا يعرض هكذا لا يعرف له قَبيل من دبير، وإنما يفصَّل ويقسم ويبوب، حتى إذا ما نظر الناظر في فهرسته علم مراد المصنف من مصنفه.

*** قال رحمه الله: باب ما تنطق به الألسنة.**

الشرح:

أي: الأمور التي يتكلم الإنسان بها ويدعيها، والنظر في حقيقة ما يعلق بالقلب من تلك الكلمات، هل تقول كلامًا لا تعتقده؟ وتدعي أمورًا لا تثبتها؟ أما أن القلب يوافق اللسان، وهذا هو حقيقة الإيمان، كما قال علمائنا عليهم الرحمة: الإيمان: قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، هذا هو الإيمان عند علمائنا عليهم الرحمة، قولٌ ظاهر، واعتقاد باطنٌ، وأثرٌ

على الجوارح، وأعمال لأركان الديانة تزداد مع الطاعة، وتنقص بالمعصية.

وأول ما يعتقده المرء ولا يصح إسلامه إلا باعتقاده أن يوحد الله رب العالمين، وتوحيدُ الله يقوم على ركنين عظيمين: يقوم على نفي وإثبات، لا إله أي: نفي لجميع المعبودات من دون الله تبارك وتعالى، فلا عبودية لبشر، ولا عبودية لحجر، ولا عبودية لملك، ولا عبودية لنبي، ولا عبودية لرسول، ولا عبودية لولي، ولا يعبد الهوى من دون الله عز وجل، فكل من أحب شيئًا دون الله فقد عبده من دون ما سواه.

قوله رحمه الله: لا إليه غيره.

هي كلمة التوحيد، وهي طريق الوصول إلى الإخلاص، وهي طريق الفلاح دنيا وآخره، ومن عاش على هذه الكلمة مات عليها، ومن مات عليها بعث مع أهلها، والناس في الدنيا ثلاثة أقسام؛ وأما في الآخرة فالناس قسمان.

الناس في الدنيا مؤمن، وكافرٌ، ومنافق، والناس في الآخرة مؤمن وكافر، صائر إلى الجنة وصائر إلى النار.

والنبي ﷺ أول ما دعا قومه دعاهم إلى هذه الكلمة العظيمة، فقال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا لا إله إلا الله يدين لكم بها العرب والعجم جميعًا»[1]، فمن أراد أن يرفع له قدر، ومن أراد أن يبقى له في الحياة أثر، ومن أراد أن يصبح له بين الناس فضل، ومن أراد أن يكون بعد الموت ذكر، فعليه أن يحقق هذه الكلمة، هذه الكلمة التي من لأجلها خلق الله السموات والأرض، من أجلها أرسل الله الرسل، وأنزل الله الكتب، وجعل الله الجهاد بين المؤمنين والكافرين، ومن أجل هذه الكلمة يبعث الله الناس للقيام بين يدي الله رب العالمين، ومن أجلها تتطاير الصحف وتوضع الموازين فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله.

[1] تقدم تخريجه.

ولا يصح إسلام مسلم، ولا إيمان مؤمن حتى يعتقد هذه الكلمة تمام الاعتقاد، فمن شك في وجود الله كفر، ومن شك في قيام الله رب العالمين بما هو مخلوق فقد كفر، ومن شك في عبودية الله وإلهيته فقد كفر، ومن أنكر أسماء الله وصفاته فقد كفر، لا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بالإيمان بهذه الأربع.

والإيمان: هو التصديق المستلزم للإقرار والإذعان، فالصحابة رضوان الله عليهم لما قالوا هذه الكلمة هجروا الأوطان، وبذلوا الأموال، وهان عليهم ترك النساء والأولاد، وجاهدوا في الله بالسنان واللسان.

والنبي ﷺ لما بايع الأنصار بايعهم على عبادة الله عز وجل، فآووا ونصروا وبذلوا وأحسنوا، فصاروا من أنصار الله رب العالمين، ولا تتحقق هذه الكلمة إلا بتحقق لوازمها، فلا إله إلا الله يعتقد صاحبها أنه لا شبيه لله ولا نظير.

*** قوله رحمه الله: لا شبيه لله ولا نظير.**

الشرح: أي: أن الله لا مثيل له، ليس له مماثل، وليس له مشابه من مخلوقاته، كيف وهو الخالق وهم المخلوقون، وهو المعبود وهم العابدون، وهو المتصرف في جميع مخلوقاته بما يشاء وبما يريد، صاحب الكمال ذاتًا وأسماءً وصفاتًا قال عن نفسه: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الشورى١١]، كيف يكون له شبيه، وكيف يكون له نظير، وهو واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في وجوده، واحد في ربوبيته، واحد في ألوهيته، كيف يرقى المخلوق إلى مرتبة الخالق وهو مخلوق، وكيف يرقى المرزوق إلى مرتبة الرازق وهو المرزوق، فكلٌ عند حده لا يتعدى رسمه ولا وصفه.

* **قوله رحمه الله: ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له.**

والله رب العالمين لتوحده فليس بالذي يلد، ولا بالذي يولد؛ لأن الذي يلد له شبيه، والذي يولد له مثيل ونظير، فلا ولد له ولا والد

لكمال غناه؛ ولأنه لا يحتاج شيئًا من مخلوقاته، فالولد يحتاج إلى أبيه في وجوده، ويحتاج إليه في تربيته وتعاهده، ويحتاج إليه في توجيهه وتعليمه، والله رب العالمين غني عن خلقه، بل غني عن عرشه، بل غني عن سماءه، بل غني عن ملائكته، وقد قال عن نفسه: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص٣]، وقال: ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا** ﴾[الجن٣]، ولعلو شأنه وعظيم قدره فهو لا يحتاج أحدًا معه لا شريك له؛ لأن الذي يحتاج إلى شريك هو الضعيف الذي لا يقوى على حمل ما يريد، فالرجل إذا أراد تجارة فإنه يبحث عن شريك لعجزه عن القيام بها وحده، والذي يريد أن يحمل حملًا ويعجز عن حمله يحتاج إلى معين، والله رب العالمين لا يحتاج لأحدٍ من خلقه، ﴿ **وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾[لبقرة٢٥٥]، أمره في خلقه إنما هو – بكن - ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن**

﴿فَيَكُونُ﴾[يس٢٨]، ما أراد الله شيئًا إلا قضاه لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

والذي ينظر في أخبار الأنبياء والمرسلين يرى قدرة الله رب العالمين، حين أنجى إبراهيم من النار فكانت عليه بردًا وسلامًا، وحين أنجى موسى عليه السلام من فرعون فضرب موسى بعصاه فكان كل فرق كالطود العظيم، وانظر إلى قدرة الله في نوح عليه السلام كيف أنزل الله الماء من السماء وأخرجه من الأرض حتى جعل العالم كله بحرًا ما استطاع أحد أن ينجو منه، ولما قال ولد نوح: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[هود٤٣]، فالله رب العالمين هو الغني بذاته، الغني بصفاته، الغني بأسمائه عن خلقه جميعًا، ليس له من يشاركه في خلقه، ولا يرضى أن يشاركه أحدٌ في عبادته لذا ينبغي على المرء أن يحقق الإخلاص في عمله، فكما أن الله خلقك وحده فاعبده وحده، وكما أنه رزقك

وحده فلا تجعل معه أحدًا في رزقه، وكما أنه الذي يحيك وحده والذي يميتك وحده فلا تخشى أحدًا مع الله، لا تخشى جنيًا ولا تخشى إنسيًا ولا تخشى ميتًا ولا تخشى وليًا ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران١٧٥].

والشرك بالله نوعان؛ الذين يشركون مع الله إله غيره، يشركون في أمرين عظيمين:

شركٌ أكبر: وهو أن يجعل مع الله إلهاً آخر سواءً كان ملكاً، أو رسولًا، أو وليًا، أو شمسًا، أو قمرًا، أو حجرًا، أو بشرًا فالذين يعبدون القبور، وينذرون إلى المقبور، والمقبور لا ينذر له، ولا يعبد من دون الله لأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

الشرك الأصغر: وهو ما كان دون الشرك الأكبر، ويكون بالأفعال لا بالاعتقاد، كالرياء: يرائي المرائي بأعماله، يرائي القارئ بقرآنه، يرائي

صاحب العلم بعلمهِ، يرائي صاحب المال ببذله، فهؤلاء جميعًا تحبط أعمالهم؛ قال الله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[الزمر٦٥].

الشرك: لا يليق بالنبي الأمين، ولا بالصحابة المطهرين، ولكنه خطابًا إلى الأمة، يقول الله: يا أمة مُحَمَّد ها هو نبيكم أحذره من الشرك وأخوفه منه وأبين له لو أشرك لحبط عمله، فلا تشركوا بالله.

ومن صور الشرك: الاعتماد على غير الله، ومن صور الشرك ألا تستثني في قولك ما شاء الله وشاء فلان وإنما تقول ما شاء الله ثم فلان، وأن تقول لولا الله ثم فلان، والحلف بغير الله، وما يكون من نذرٍ لغير الله إذا لم يبتغ به أن يكون النذر فيما لا يجوز إلا لله.

والنجاة من الشرك تكون بالاعتصام بالتوحيد، وذلك بفهم حقيقة التوحيد: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ**

﴿الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام١٦٢]، ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان٨]، لما بين المصنف رحمة الله عليه عاقبة الشرك وسوءه، ذكر ما لله من صفات.

* **قوله رحمه الله: ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء.**

الشرح:

فسبحانه فهو الأول بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، فالإنسان له بداية ونهاية، ويسبقه عدم ويلحقه فناء، والله رب العالمين أولٌ بلا ابتداء آخر بلا انتهاء لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس

دونك شيء، اقضِ عنا الدين وأغننا من الفقر»[1]، ويقول الله عز وجل: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[الحديد٣]، وأولية الله لأنه لا يحتاج إلى أحدٍ في وجوده، وأما أولية سواه فلأنه يحتاج إلى غيره في وجوده، فلم يكن موجودًا فصار له وجود، وأما الله فوجوده أزلي سرمدي.

ثم ذكر المصنف رحمه الله بعد أن بين أن الله أولٌ بلا ابتداء، آخر بلا انتهاء، راعى أن العقل قد يجول ويصول في هذا الأمر، يقول كيف يكون أول بلا ابتداء ولابد للشيء أن تكون له بداية وأن تكون له نهاية، فيقول لك محذرًا أن تفكر في صفات الله بعقلك، أو أن تسعى إلى أن تصل إلى كنه الله بنظرك.

*** قوله رحمه الله: لا يبلُغُ كُنهَ صفته الواصفون، ولا يُحيط بأمره المتفكِرون.**

الشرح:

[1] أخرجه مسلم (٢٧١٣)من رواية أبو هريره.

فسبحانه الخالق فكيف يشابه المخلوق وهو خالق الوجود، فكيف يشابه الوجود، ولو أنك نظرت إلى ولدك فإنه في وجوده يحتاج إليك وأنت تحتاج إلى أبيك، وأبوك يحتاج إلى جدك وهكذا إلى أن يصل الناس إلى آدم عليه السلام، فمن الذي خلق آدم خلقه الله عز وجل، فالبداية والنهاية للمخلوق، وأما الخالق فلا بداية له ولا نهاية، لأنه خالق البدايات وخالق النهايات، وبيده أمر الأرض والسموات.

*** قوله: لا يبلغ كنه صفته الواصفون.**

الشرح:

أي لا يستطيع أحد أن يدرك حقيقة صفة الله تعالى؛ لأنه لا يشبه أحدًا من خلقه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشورى١١]، ولا أحد يستطيع العلم والإدراك بأمره مهما بلغ من التفكير، ولكن يوصف بما وصف به نفسه، ويسمى بما سمى به نفسه، فيصفه الواصفون بأوصافه التي ذكرها، ويسميه الخلق بأسمائه الذي في كتابه قد سطرها.

وأما الإحاطة العقلية فهذه لا يصل إليها، لأن العقل مخلوق كيف أن يصل إلى الخالق، وتخيل معي لو جاءك رجل وقال لك عندي شقة كبيرة فيها أربعٌ من الأبراج في كل برجٍ ما يزيد عن مائة من الشقق في كل شقة ما يزيد عن عشر حجرات، هل تصدقه؟ كيف بالشقة الصغيرة التي تحوي الأبراج العظيمة، ولكن إذا قال لك عندي برج فيه عدد من الشقق وكل شقة فيها عدد من الحجرات فهذا الذي يعقل، والعقل مخلوق كيف يحيط بالخالق.

وأضرب لك مثالًا: ثلاجتك أو غسالتك التي في بيتك هل تخبرك يومًا مهما فعلت عن ذلك الذي صنعها، أو عن ذلك الذي اخترعها مهما حاولت تحطيمًا وفكًا وتركيبًا تريد منها أن تصف لك من الذي صنعها، وكيف صنعها، وما اسمه وما صفته وما كنه وما ذاته، ثم تعالى فانظر إلى تلك الصنعة في طبيعتها إنما هي عبارة عن أسلاك وعبارة عن قطع من الحديد، وعبارة عن قطعٍ من الفبر والبلاستيكات فهذه طبيعتها، فهل هذه الطبيعة يقاس عليها الذي صنعها، يقاس عليها

الذي اخترعها، هل تقول إن هذه الصنعة تشابه الصانع، والصانع هو إنما هو ثلاجة كبيرة ذات أحجامٍ عظيمة فيها من الأسلاك ما فيها ما يسع نفسه ويسع غيره، هل أحد يقول ذلك، ولو نظرت إلى طبيعة الصنعة وطبيعة الصانع لوجدت فرقًا عظيمًا، فهذه تتكون من أسلاك وحديد ومواد، وهذا يتكون من دم وعظمٍ ولحمٍ وروح، هذه لا تتحرك، وهذا يتحرك، وهذه تصنع، وهذا يولد، هذه لا تتكلم وهذا الصانع يتكلم، هذه لا تعي ولا تفكر إلا في حدود معينة التي من أجلها صنعت، وأما الصانع فهو يتجاوز ذلك كله، بهذا المثل الذي هو فرق بين مخلوق ومخلوق، فكيف الفرق بين الخالق تبارك وتعالى والمخلوق.

فيا عبد الله كلما همت نفسك أن تفكر في ذات ربك، فقل لها اخسئي فلن تعدوا قدرك، ما أنت والخالق وأنت مخلوقة؛ والجبل العظيم لما أراد موسى الكليم أن يرى من صفات الله رب العالمين ومن آثار نوره أراد أن يرى شيئًا من ذلك: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** ﴾[الأعراف١٤٣]، فما الذي حدث؟ تجلى الله رب العالمين بقدر

أنملة من نوره من جلاله من كماله على الجبل فجعله دكًا وخر موسى صعقًا.

لذا على المرء أن يعلم أن عدم الإدراك إدراك، عدم إدراك كنه الله دليل على عظمة الله وجلاله، وكماله، وعظيم إفضاله، فالمخلوق لا يحيط بالخالق، والمصنوع لا يحيط بالصانع، والقليل لا يحوي الكثير، فكيف بالرب الجليل العظيم.

*** قوله رحمه الله: يعتبر المتفكرون بآياته.**

الشرح:

إذا أردت أن تصل إلى معرفة الله فانظر في سمائه على مدى علوها وأبراجها، وانظر إلى أرضه على مدى اتساعها وفجاجها، وانظر إلى بحاره على كثرة أمواجها ومياهها، وانظر إلى النباتات على كثرة تنوعها وألوانها، وانظر إلى الحيوانات في تباين أجناسها وأصنافها، بل انظر إلى ذاتك لسانٌ يتكلم، وعين تبصر، ويد تبطش وفؤادٌ ينبض، ومعدة تهضم، وقدمٌ تحمل، هل تعي من ذلك شيء؟ إنك تستخدم ذلك كله

ولا تعرف عنه شيء، من الذي سخر لك ذلك؟ من الذي هداك لكلماتك؟ من الذي يسر لك أسباب سمعك وبصرك؟ من الذي قام على أمر بطنك وفرجك؟ سبحان الله؛ كان عليٌّ ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: يا لها من نعمة لو قدرها الناس.

فإذا أردت أن تصل إلى الله فانظر في مخلوقاته، ولا تنظر ولا تفكر في ذاته، فإن مثل الذي يفكر في ذاته كرجلٍ لا يقدر إلا على حمل عشرين أو ثلاثين من الكيلو جرامات فقال للناس: احملوا علي مئتي من الكيلو جرامات واجعلوها فوق رأسي، فقيل له: إنك لا تطيق ولا تتحمل، فقال متكبرًا فقال متجرأً: بل أطيق ذلك؛ فحمل عدة من الرجال مئتين من الكيلو الجرامات ثم وضعوها فوق رأسه فنزلت على رأسه فأخذت به وببدنه فكسرت عظامه وأهلكت جثمانه، هذا حال من يريد أن يفكر في الله بعقله.

ولكن إذا أردت أن تفكر في الله ففكر في آياته:

وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدُلُّ عَلَى أنَّه واحِدٌ[1]

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران ١٩١].

سُئل الأعرابي كيف عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وسماء ذات أبراج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

نبيكم ﷺ في أول أمره قبل وحيه، وقبل القرآن ينزل عليه كان يترك الناس في لهوهم في لعبهم في كفرهم، في ضلالهم في شركهم، وكان يذهب إلى غار حراء أعلى مكة يبتعد عن الناس، يفكر في بدءه

[1] من شعر لبيد بن ربيعة.

ومنتهاه، يفكر في طعامه وشرابه، يفكر في سماء الله وأرضه، فلما أراد أن يصل إلى الله اصطفاه ربه واجتباه.

ولكنَّ الناس شغلتهم الدنيا بشغلها، وفتنتهم الدنيا بفتنها، يستيقظ من نومه ولا يحمد ربه أن الذي أيقظه هو الله أيقظه وعافاه وأمرض غيره وأماته، ولكنَّ الناس لا يفكرون، الناس لا يعتبرون، كم من مبتلىً حولك من فقد بصره، ومن فقد سمعه، ومن فقد يده وقدمه، وأعطاك الله ذلك، لما لم تحمد الله على نعمه، لما لم تحمد الله على فضله، ولكنّ الناس يعيشون مع المنطق الفرعوني ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْر وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِي** ﴾[الزخرف٥١]، كثير من الناس يعيش مع المال بالمنطق القاروني ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى** ﴾ [القصص٧٨]، كثير من الناس يعيش بالمنطق النمروذي يقول: ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾[البقرة٢٥٨]، كثير من الناس يعيش بالمنطق الهاماني يظن أنه يستطيع أن يعادي الله رب العالمين في سمائه، وأن

يعترض على الله في أمره وقضائه، من أنت ومن تكون، بقةٌ تقلقك، وشرقة تميتك، وعرقة تحرقك، وغصةٌ تهلكك، من أنت ومن تكون، أولك نطفة مذرة، وآخرك ميتة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل في بطنك العذرة.

أنت أنت تفكر في الملك، أنت الفقير تفكر في الغني القدير، أنت العاجز تفكر في الله القوي القهار، قف عند حدك واعرف قدرك، واعلم أن الله رب العالمين لا يحيط به أحدٌ علمًا، ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ﴾[البقرة٢٥٥]، لا يتأمل ولا يفكر أحدٌ في البشر في حقيقة ذات الله التي نؤمن بها، ونؤمن بأنها لا تشبه ذات المخلوقين، ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾[البقرة٢٥٥]،عبد الله ما أخفى الله نفسه عنك عجزًا؛ وإنما أخفى نفسه عنك خوفًا عليك، فإنه سبحانه لو كشف عن وجه لأحرقت سُبحات وجه ما انتهى إليه بصره من خلقه؛ ولأنك

ضعيف رحمك، وحينما تموت ثم تبعث وتتغير خلقتك، وتتغير طبيعتك فإنك سترى الله عز وجل كما ترى القمر في ليلة التِم، وكما ترى الشمس في رائعة النهار، فتفكر في خلق الله، فتصل بذلك إلى الله، ولا تتفكر في ذات الله فإن ذات الله ليس كمثلها ذات، وصفات الله ليس كمثلها صفات، لو أن إنسانًا ذكر لك شيئًا لم تره ولم تعرفه ولم يكن في أرضك وبلدك مهما ذكر لك، فإنك لن تستطيع الإحاطة به، والله واحدٌ في أسمائه، واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في سمائه.

الله تبارك وتعالى أراد بخلقه أشياء، وأراد من خلقه أشياء؛ ولا يمكن للعبد أن يصل إلى مراد الله به حتى يؤدي مراد الله منه، فمن كان لله كما يريد، كان الله له فوق ما يريد؛ وقد جاء في الحديث القدسي بيان ذلك وتأكيده وذلك في قول الله رب العالمين، الذي نقله عنه نبيه الأمين: «من تقرَّب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن آتاني يمشي أتيته هرولة، ولا يزال عبدي

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحِبه، فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، لئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مُسائته»[1].

هذا ربك تبارك وتعالى يخبرك عما في نفسه لك عبد الله، أنت العبد الفاني وهو الرب الباقي، أنت الفقير الذليل وهو الغني العزيز، وما مع ذلك يتودد إليك، ومع ذلك يتقرب إليك، يتقرب إليك فوق ما تتقرب به أنت إليه، فإذا ما اقتربت منه ذراعًا اقترب الله منك باعًا، وإذا ما أتيته ماشيًا أتاك الله رب العالمين هرولة، فإذا ما وصلت إليه بالأعمال والطاعات، كان سمعك الذي تسمع به، وبصرك الذي تبصر به، ويدك التي تبطش بها، هل تجد ذلك من زوجك، هل تجد ذلك من ولدك، هل تجد ذلك من أخيك ابن أمك وأبيك، هل تجد ذلك من صاحبك، هل تجد ذلك من خليلك، ولكنه سبحانه عطائه

[1] أخرجه البخاري(٦٥٠٢)من رواية أبو هريرة.

عطاءً، وفضله فضلًا، فهو سبحانه ليس كمثله شيء لا في فضله ولا في عطائه، لا في كرمه ولا في جوده.

فيا عبد الله ما الذي أنت فاعله، وما الذي أنت عازمٌ عليه مع ربك الذي خلقك فسواك فعدلك، ثم فيما شاء ركبك، ماذا أنت صانع هل أنت طائعٌ له أم طائعٌ لنفسك؟ هل أنت سائر في سبيل الوصول إليه أم سائر في سبيل الوصول إلى نفسك؟ هل تعرف مراده منك، وهل تعرف مراده بك؟ إن الله أراد بنا أشياء وأراد منا أشياء، وما أراده الله منا إنما هو لنا لا له، يا ابن آدم يقول الله عز وجل: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم جاءوا في صعيد واحد فسألوني كل واحدٍ منهم مسألته فأعطيته إياه ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا

أدخل في البحر، يا عبادي إنكم لن تبغلوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

هذا مراده منك أن تعبده ولا تبعد أحدًا سواه، أن تتبع نبيه ولا تتبع أحدًا سواه، أن تكون في مرضاته، أن تكون مبتعدًا عن منهياته، وما أمرك به يعود عليك لا عليه، وما نهاك ضرره يعود عليك لا عليه، هذا مراد الله منك.

أما مراد الله بك فقد أخبرك عن ذلك في آيات كثيرة فقال سبحانه: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[النحل٩٧]، سعادة في الدنيا ونعيم في الآخرة، هذا هو مراده بك، وقال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**

[1] أخرجه مسلم(٢٥٧٧)من رواية أبو ذر الغفاري.

﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾[الرعد٢٩]، ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ أي: لهم الحياة الطيبة، ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ أي: لهم الجنة في الآخرة، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[المطففين٢٢] قال علمائنا عليهم الرحمة: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ في دورهم الثلاثة، ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ في دورهم الثلاثة في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة.

والمرء لا يصل إلى الله إلا بمعرفته، لا يصل المرء إلى الله إلا بالإيمان به، فإن الكفر حجابٌ وظلمة، وإن الإيمان نورٌ وطريقٌ ويسار، الإيمان: نورٌ يبصر العبد بطريقه إلى الرب، والكفر ظلمة: تحول بين العبد وبين معرفة الرب؛ لذا فإن حاجة الإنسان إلى العلم أعظم من حاجته إلى النفس، حاجة الإنسان إلى العلم بالله أعظم من حاجته ما يقوم به بدنه وروحه، وفي ذلك يقول الإمام أحمد رحمة الله عليه: إن حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب

والنفس.؛ لأن المرء إذا عدم طعامه وشرابه فغاية أمره أن يموت، وأما إذا عدم العلم فهو هلاك الدنيا وهلاك الآخرة.

والنبي ﷺ لما علَّم الصحابة الإيمان استقامت لهم نفوسهم، واستقامت لهم حيواتهم، واستقامت لهم نسائهم، واستقام لهم أبنائهم؛ لأنهم علموا من يعبدون، وعلموا أجر ما عليه يعبدوه، وعلموا وزر ما به يعاقبون إذا لم يكونوا إذا لم يكونوا لله عابدين.

وهذه امرأة من التابعين جُرح أصبعها فضحكت، فقيل لها على ما تضحكين؟ قالت: حلاوة الأجر أنستني مرارة الألم.

وها هي الخنساء[1] التي بكت أخاها عند موته حتى ذهب بصرها، يموت أربع من أولادها في غزاة واحدة فلما أتى الناس استقبلتهم على باب الدار وقالت: من آتاني مهنئًا فأهلًا به وسهلًا، ومن آتاني معزيًا فليرجع فإن الله قد أكرمني بهؤلاء.

---

[1] تَمَاضُر بنت عَمْرُو بن الحَارِث السَّلَمِيَّة، الشهيرة بالخَنْسَاء ، (٥٧٥م – ٢٤ هـ / ٦٤٥م)، صحابية وشاعرة، أدركت الجاهلية والإسلام وأسلمت، واشتهرت برثائها لأخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في الجاهلية، ولُقبت بالخنساء بسبب ارتفاع أرنبتي أنفها.

ما الذي جعلها تستقبل الموت هذا الاستقبال، تستقبل موت الأبناء الذي جعلها كذلك أنها عرفت ربها، وعرفت الأجر على صبرها، وعرفت الإيمان بقضاء ربها تبارك وتعالى.

فيا عبد الله تعالى بنا ننظر في كلام علمائنا الذين يعرفوننا بربنا، ويبصروننا بحقيقة إيماننا.

*** قال المؤلف رحمه الله:**

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوَّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه وما يسَّره له من رزقه، وعلَّمه ما لم يكن يعلمُ، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا، ونبَّهه بآثار صنعته وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخِيرة من خلقه، فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدلِه، ويسَّر المؤمنين لليُسرى، وشرح صدورهم للذِّكرى، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلُوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رُسُله وكتبه عاملين، وتعلَموا ما علَّمهم، ووقفوا عند ما حدَّ لهم، واستغنوا بما أحلَّ الله لهم عمَّا حرَّم عليهم.

أما بعد:

أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جُملة مختصرةً من واجب أُمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوبُ، وتعمله الجوارِح، وما يتصلُّ بالواجب من ذلك من السُّنن من مؤكدَّها ونوافِلها ورغائبها، وشيءٍ من الآداب منها، وجُملٍ من أصولِ الفقهِ وفنونِهِ على مذهب الإمام مالك بن أنس – رحمه الله تعالى – وطريقتِه، مع ما سهَّل سبيل ما أشكَلَ من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقِّهين، لما رغِبتَ فيه من تعليمِ ذلك للوِلدان، كما تُعلِّمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهمِ دين اللهِ وشرائعِهِ ما تُرجى لهم بركتُه وتُحمدُ لهم عاقِبتَهُ، فأجبتُك إلى ذلك لِمَا رجوتُهُ لنفسي ولك من ثوابِ مَن علَّم دين الله أو دعا إليه.

الشرح:

فقد سُئل ابن أبي زيد أن يكتب كتابًا لصغار المسلمين ليتعلموا به كيف يعرفوا رب العالمين، ولكن ما أحلى ما كتب، وما ألذ ما صنف، وما خرج ذلك إلا من قلب ملئ بالإيمان.

هذا هو حال التابعين هذا هو حال السابقين في أمة النبي الأمين، كانوا يقيمون العقيدة مع القرآن العظيم، كانوا يربون الأبناء على حمل القرآن ألفاظًا وأحكامًا، وكانوا يربونهم على حمل الإيمان عقائد ويقينًا وبرهانًا.

*** قال رحمه الله:**

واعلم أن خيرَ القلوبِ أوعاها للخيرِ، وأرجى القلوبِ للخيرِ ما لم يسبقِ الشرُّ إليه، وأولى ما عُنِي به الناصحون ورغِبَ في أجرهِ الرَّاغبون إيصالُ الخيرِ إلى قلوبِ أولادِ المؤمنين ليرسَخَ فيها، وتنبيهُهُم على معالِمِ الديانة، وحدود الشريعة، ليتريضوا عليها وتكون لهم دينًا ومنهاجًا وما عليهم أن تعتقده من الدين قلُوبهم،

وتعملَ به جوارحُهم، فإنه رُويَ أنَّ تعليمَ الصِّغار لكتاب الله يُطفِئُ غَضبَ اللهِ، وأنَّ تعليمَ الشيء في الصِّغر كالنَّقش في الحجر.

وقد مثَّلتُ لك من ذلك ما ينتفعون – إن شاء الله – بحفظه، ويشرُفُون بعلمِهِ، ويسعدُون باعتقادِهِ والعملِ به، وقد جاء أن يُؤمروا بالصلاةِ لسبعِ سِنين، ويُضربوا عليها لعشرٍ، ويُفرقَ بينهم في المضاجعِ، فكذلك ينبغي أن يُعلَّموا ما فرض اللهُ على العباد من قولٍ وعملٍ قبل بُلُوغِهِم ليأتي عليهم البلوغُ وقد تمكَّن ذلك من قلوبِهم، وسكنتْ إليه أنفُسُهم، وأنِستْ بما يعملون به من ذلك جوارحُهُم.

وقد فرض الله سبحانه وتعالى على القلب عملًا من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملًا من الطاعات.

وسأُفصِّلُ لك ما شرطتُ لك ذكرهُ بابًا بابًا؛ ليقرُب من فَهمِ مُتَعلِّمِيه – إن شاء الله تعالى –، وإيَّاه نستخيرُ وبه نستعينُ، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ نبيه وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

الشرح:

عباد الله ما أكثر ما نفرط في حق أبنائنا، وما أعظم أن نجني على مستقبلهم دنيا وآخرة، وذلك أننا نقيم في الأبناء الأبدان، ولا نقيم فيهم الأرواح والأديان، فيأتي الأبناء مسخٌ مشوه، يأتي الأبناء حركة ظاهرة، يأتي الأبناء مبغضين لدين الله رب العالمين، يأتي الأبناء نحملهم على الطاعات فلا نراهم بين المصلين مصلين، ولا نراهم بين الغاضين لأبصارهم غاضين، ولا نراهم بين الحافظين لفروجهم حافظين، ولا نراهم بالتأسي بالنبي ﷺ متأسين، وإنما نراهم على ما يكون من شيم الغرب سائرين مقلدين، على هجر البلاد والأوطان مهاجرين مسارعين

لماذا؟ لأن الولد ابن بيئته، فالولد الذي يتربى في بيئة صالحة يخرج كذلك صالحًا، والولد الذي لا يؤسس على الإيمان ولا يؤسس على عقائد الأديان هكذا يكون.

ولو أنك أخذت ولدًا عربيًا ولد من أمٍّ عربية وأبٍّ عربي من أقحاح العرب، ثم حملته إلى دولة أوربية وجعلته بين رجلٍ أوربي وامرأة أوربية ثم تركته خمس سنين أو سبع سنين لجاء أوربيٌّ في كلماته، أوربي في أفعاله، أوربي في حركاته؛ لأن الولد ابن البيئة التي يحيى فيها، والمرء لا يمكن أن يفعل بذلك بولده ولكننا نفعل فوق ذلك، فإننا لا نسلم أبنائنا للغرب يسافرون هناك يحملون مسؤولية أكله وشربه، يحملون مسؤولية رعايته وتربيته، وإنما نحن نستورد أفكارهم، نستورد عادتهم، نستورد عقائدهم، نستورد منهاجهم من أجل أن يتربى عليها أبنائنا، من أجل أن يعيش عليها صغارنا، فنتكلم بلغتهم، ونعيش حياتهم، ونربي أبنائنا على عاداتهم.

ولكن انظر إلى الأمة في مجدها، انظر إلى الأمة في عزها كانوا يربون الأبناء على تعليم العقيدة والقرآن، هذا المتن كان يحفظه الولدان في الكتاتيب مع القرآن، كانوا يحملون ذلك العلم، فإذا ما بلغ الولد بلغ سنيًا، بلغ مؤمنًا، بلغ معتقدًا للعقائد التي ترضي الله رب العالمين.

*** قال المؤلف رحمه الله:**

من ذلك: الإيمانُ بالقلب، والنطقُ باللِّسان: أن اللهَ إلهٌ واحدٌ، لا إله غيرُهُ، ولا شبيهَ له، ولا نظيرَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له، ولا صاحبةَ لهُ، ولا شرِيك لهُ، واحدٌ في أسمائه، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أقواله وأفعاله، ليس كمثله شيء.

ليس لأوَّليَّته ابتداءٌ، ولا لآخريَّتهِ انقضاءٌ، لا يبلغُ كُنه صفتِهِ الواصفونَ، ولا يُحيطُ بأمرِهِ المتفكِّرون، يعتبر المتفكِّرون بآياته، ولا يتفكَّرُون في ماهيَّةِ ذاته: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا

بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

العالمُ الخبيرُ، المدبِّر القديرُ، السميعُ البصيرُ، العليُّ الكبيرُ، وأنَّه فوق عرشِهِ المجيد بذاته، وهو في كل مكانٍ بعلمِهِ، خلَقَ الإنسانَ ويعلمُ ما توسوسُ به نفسُهُ، وهو أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُها، ولا حبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابِسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ

على العرش استوى، وعلى المُلك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفاتُ العُلا، لم يزل بجميع صفاته وأسمائِهِ، تعالى أن تكون صفاتُهُ مخلوقةً، وأسماؤُهُ مُحدَثةً.

كلَّم موسى بكلامِهِ الذي هو صفةُ ذاتِهِ، لا خلقٌ من خلقِهِ، وتجلَّى للجبلِ فصار دكًّا من جلالهِ

وأن القرآن كلامُ اللهِ، ليسَ بمخلُوقٍ فيبيدَ، ولا صِفة لِمخلُوقٍ فَيَنْفدَ.

الشرح:

أي: من جملة العقائد التي ينبغي ويجب على المسلم أن يعتقدها، وأن يربى الصغار على أركانها؛ هذا ما ينبغي عليك أن تعتقده عبد الله في ربك وخلقك، في إلهك ورازقك.

الإيمان عند علمائنا عليهم الرحمة: قولٌ باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، هذا هو الإيمان الذي ينبغي على المسلم أن يعتقده، الإيمان بالقلب، وكما قال الحسن البصري: القلب دواة واللسان قلمها، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل؛ فالإيمان قول اللسان، وتصديق القلب وعمل الجوارح.

ما ينبغي على المسلم أن يعتقده أن الله واحدٌ أحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا

شريك له، الله رب العالمين ليس كمثله شيء، الله رب العالمين ليس لصفاته نظير، ولا لأسمائه مثيل، فهو سبحانه منزهٌ عن مشابهة النظير والمثيل.

وهو أول بلا ابتداء؛ لأنه ما من أول ألا ويحتاج إلى بداية، وما من آخر إلا وهو يحتاج إلى نهاية، والله رب العالمين خالقٌ ليس بمخلوق، الله رازق ليس بمرزوق، الله رب العالمين وجوده من ذاته، لا يحتاج إلى أحد لإيجاده، وجوده لا يسبقه عدم، ولا يلحقه فناء، بل هو أول بلا ابتداء آخر بلا انتهاء، من أراد أن يصل إلى الله فليصل إليه بخلقه لن يستطيع أن يصل إليه بعقله؛ لأن العقل المخلوق فكيف للمخلوق أن يصل إلى الخالق.

فلو أنك نظرت في تلك الآلات التي بين يديك ثلاجة، غسالة، سيارة هل تستطيع هذه الأشياء أن تخبرك عن صانعها، أن تخبرك عن مهندسها، أن تخبرك عمَّن جمعها وصممها، مهما فعلت، لو أنك قطعتها قطعًا، لو أنك مزقتها مزقًا، من أجل أن تخبرك عن صفة

صانعها ما استطاعت، وهكذا عقلك مهما عملتها العمل فيه، ومهما دققت بالنظر فيه فإنك لن تصل إلى ذات الله رب العالمين.

ومن أجل أن توقن ذلك انظر إلى الثلاجة وانظر إلى صانعها هل ثمة تشابه في مادة كل منهما؟ هذه مكونة من حديد وأسلاك وبلاستيك وغيره هذه تصنع، هل الذي صممها يصنع؟ هل الذي صممها عبارة عن أسلاك، عبارة عن حديد ومعادن؟ شتان بين الثلاجة وبين من صنعها لا وجه للمشابهة، لا وجه للمشاكلة، وهذا بين مخلوق ومخلوق، فكيف بينك وبين الله رب العالمين؟

فكلما أراد عقلك أن يصل إلى ربك قل اخسئ لن تعدوا قدرك، وإن مثال من أراد أن يصل إلى الله بعقله كرجل تجشم حملًا عظيمًا فأراد أن يحمل طن من الحديد، فقيل له لا تقوى على ذلك ولا تقدر عليه، فقال: ارفعوا فوق رأسي، قالوا: لا تقدر عليه ولا تقوى عليه، قال: اسمعوا كلامي فأتوا بآلة فرفعت الحديد، وتمكن منه فلما أعمل

يده فيه قال خلوا بيني وبين هذا الحمل، ما ترى بعد ذلك؟ هلاكه ضياعه موته فنائه؛ وهذا حال من يريد أن يصل إلى الله بعقله.

*** قوله رحمه الله: ليس لأوَّليَّته ابتداءٌ، ولا لآخريَّتهِ انقضاءٌ، لا يبلغُ كُنه صفتِهِ الواصفونَ، ولا يُحيطُ بأمرِهِ المتفكِّرون.**

الشرح:

الطريق المفتوح لتصل إلى الله من خلال النظر إلى خلقه، من خلال النظر في كتابه، من خلال النظر إلى معجزات أنبيائه، إذا كان هذا هو الخلق ببهائه وجلاله، فكيف بالخالق، إذا كان هذا الشرع في حكمته ورحمته ورأفته فكيف بالذي شرعه، إذا كان هؤلاء أنبيائه ورسله في أخلاقهم في شياتهم في أوصافهم فكيف بمن أرسلهم.

الأعرابي لما سئل كيف عرفت الله؟ قال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج ألَا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

انظر إلى نفسك تعرف ربك تبارك وتعالى، انظر إلى هبات الله فيك سمع تسمع به ولا تدري كنه، بصر تبصر ولا تعرف عمله، لسان تتكلم به ولا تعرف كيف يخرج حروفه، معدة تهضم بها ولا تعرف كيف تعمل عملها فيما تأكله، إذا كنت جاهلًا بنفسك إذا كنت غير عالم بكنهك فكيف تتطلع إلى أن تعلم كنه الله، وأنت تعلم ذات الله وهو لا شبيه له، ولا نظير له، ولا مثيل له، ولا ند له، واحدٌ أحد فرد صمد: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشورى ١١].

* **قوله رحمه الله: العالم الخبير.**

الشرح:

عالم بما يجري في خلقه، وقد يُعلم الأمر ظاهرًا ولكنه خبير يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن كان لو كان يكون، يعلم ما يجري في الظلمات، ويعلم ما يجري في عمق المحيطات، ويعلم ما يجري في الأفلاك في السموات، لا يغيب عن علمه ذرة، ولا يغيب

عن علمه حركة، ولا يغيب عن علمه كلمة حين تعلم ذلك تخالفه، حين تعلم ذلك تتكلم بما يسخطه، حين تعلم ذلك تسعى إلى المكر بخلقه، حين تعلم ذلك تتجرئ أن تظلم عباده.

*** قوله رحمه الله: المدبر القدير.**

الشرح:

هذا الكون لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بقيام الله العلي القدير، الشمس في حركتها لا تظنَّ أنها تقوم بنفسها بل عند إشراقها تستأذن الله رب العالمين فيأذن لها، وعند غروبها تستأذن الله رب العالمين فيأذن لها، وتظل كل يوم تستأذن الله حتى يأتي يوم القيامة فتستأذن الله أن تشرق من مشرقها، فيقول الله: لا، اشرقي من مغربك، وعندئذ: ﴿**لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾[الأنعام١٥٨]، هو الذي يصوركم في الأرحام، هو الذي يقوم على أمر أرضكم وسمائكم، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ**

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾[فاطر ٤١].

*** قوله رحمه الله: السميع البصير.**

الشرح:

يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء، بل يعلم ما تكنه القلوب، وما تحويه العقول، ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّه**﴾[البقرة٢٨٤]، لما نزلت هذه الآية قال الصحابة رضوان الله عليهم: لقد نزلت قاصمة الظهر يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «أتريدون أن تكونوا كبني إسرائيل حين قيل لهم: اسمعوا وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وعصينا، فقالوا: سمعنا وأطعنا يا رسول الله»[(١)].

[(١)] أخرجه مسلم(١٢٥)من رواية أبي هريرة.

البصير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يرى كل شيء، يراك في خلواتك، يراك في جلواتك، يراك حين تومئ برأسك، وحين تنظر بطرف عينك، إن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

*** قوله رحمه الله: العلي الكبير.**

الشرح:

هو الأعلى ليس فوقه شيء، هو الأعلى بصفاته، الأعلى بذاته، الأعلى بقهره.

الكبير: يبين لك النبي ﷺ عظم ذاته فيقول ﷺ: «ما السماء الدنيا بجانب السماء الأولى كحلقة ملقاة في صحراء شاسعة، والسماء الأولى في السماء الثانية كحلقة ملقاة في صحراء شاسعة» إلى أن بلغ السماء السابعة، ثم قال: «والسموات السبع بجانب الكرسي كحلقة ملقاة في صحراء شاسعة، والكرسي موضع قدم الرب، والربُّ مستو

على العرش»[1]، كيف يكون؟ السموات والأرض في الكرسي كحلقة ملقاة في صحراء شاسعة، والرب على العرش والكرسي عَلا عليهما فكيف تكون ذاته، من علم ذلك علم قدر ما يؤذن به المؤذن، حين يقول: الله أكبر، فيحتقر كل شيء أمام صفة الله الكبير، لا يرى أي شيء أمام ما لله رب العالمين، من عظم الذات وعظم الصفات.

*** قوله رحمه الله: وأنه فوق عرش المجيد بذاته.**

الشرح:

عَلا على عرشه علوًا يليق بجلاله وكماله، لا كعلو أحدٍ على كرسيه، ولا كعلو أحدٍ على سرير ملكه، كما يقوله المؤولون، يقولون: استوى أي: استولى، وهل ينازع الله في ملكه؟ ثم يستولي عليه بعد فقده، وإنما استوى على العرش أي: علا على العرش ارتفع عليه، وحينما تصلك صفات الله اجعل صفات الله على قدر ذات الله، لا تجعل علوه على

[1] أخرجه الطبري في ((تاريخه)) (١٢٠/٩)، وابن حبان (٣٦١) مطولاً،وإسناده ضعيف.

عرشه، كعلوك على سريرك، أو كعلوك على منصبك فليس كمثل علوه علو.

*** قوله رحمه الله: وهو في كل مكانٍ بعلمه.**

الشرح:

ومع عظيم علوه، ومع كونه الأعلى إلا أنه عليم بخلقه، وهو في كل مكانٍ بعلمه، ليس كما يقول الأشاعرة والمؤولون والمحرفون الذين يقولون: إن الله موجودٌ في كل مكان؛ لا، الله على عرشه وفي مكانٍ بعلمه، في كل مكانٍ بإحاطته، في كل مكانٍ بقدرته، أما بذاته منزهٌ أن يدخل في خلقِهِ أو أن يدخل خلقُهُ فيه، أرأيت ملكًا يسكن دار عبدًا من عبيده، أرأيت عظيمًا يجلس على كرسي موظف من موظفيه، الألقاب تحترم، والمناصب ترد إلى أربابها، والله رب العالمين هو الأعلى الذي لا يدانيه في علوه أحد، بل هو بائن عن خلقه، بائن لا يدخل الخلق فيه، وليس هو بداخل في الخلق، ومع ذلك فهو بعلمه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ**

إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾[المجادلة٧].

*** قوله رحمه الله: خَلقَ الإنسانَ ويعلمُ ما توسوسُ به نفسُهُ، وهو أقربُ إليه مِن حَبْلِ الوَريدِ.**

الشرح:

كان الصحابة رضوان الله عليهم في منزل من المنازل، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله:« آلله قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل قول الله رب العالمين: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾[البقرة١٨٦]»[(١)]، قال النبي ﷺ: «لله أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[(٢)]، عالم بذاته قريب إلى خلقه، عالم بأحوالهم يعلم ما توسوس به نفوسهم.

---

(١) العجاب في بيان الأسباب(١/٤٣٤)من رواية معاوية بن حيدة القشيري،وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٦٨٠)، وأحمد (١٩٥٩٩) مطولاً باختلاف يسير،من رواية أبي موسى الأشعري.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:(يا رسول الله جئت أسألك في أمر، فقال له النبي ﷺ: «تسألني أم أخبرك عن الذي جئت تسألني عنه»، فقال: بل أخبرني يا رسول الله، فقال: «جئت تسأل عن الطواف وما لك عن طوافك، وتسأل عن السعي وما لك عند سعيك، وتسأل عن كذا وكذا» قال والذي بعثك بالحق هذا الذي أتيت من أجل السؤال عنه وما حدثت بذلك أحد)[1].

وجاء جبير بن مطعم إلى النبي ﷺ من أجل أن يقتله، ذهب إليه بخنجرٍ مسموم بسيف قد أطرع بالسم ليقتل به النبي ﷺ، وكان ولده قد وقع في الأسر فلما ذهب إلى النبي ﷺ: «قال ما الذي جاء بك يا فلان؟» قال: جئت من أجل أن أفدي ولدي، قال: «لا، بل جئت لتقتلني» قال: كيف؟ قال: «قال ألم تشحذ سيفك؟ وتجعل فيه السم واتخذت ولدك ذريعة من أجلك ذلك»، قال: والله ما أتى بي إلا ذلك، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

[1] أخرجه عبدالرزاق في ((المصنف)) (٨٨٣٠)، وابن حبان (١٨٨٧)، والطبراني (١٢/٤٢٥) (١٣٥٦٦)من رواية عبدالله بن عمر،وصححه الألباني.

من الذي أعلم نبيه بما يجول في القلوب، من الذي أعلم نبيه ما يجري في الصدور، بل من الذي أعلم نبيه بما سيكون قبل أن يكون، ألم يقل نبيكم ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما قط: نساء كاسيات عاريات كأسنمة البخت المائلات»[1]، ألا ترى ذلك في شارعك، ألا ترى ذلك في حيك، من الذي أخبر نبيك أخبره الله رب العالمين.

يقول ابن كثير رحمه الله: جاء عن رسول الله ﷺ: «أن نارًا تخرج من المدينة تضاء لها أعناق الإبل ببصرى»[2]، هذا في بعثة النبي ﷺ والحديث صحيح لا مطعن فيه، يقول ابن كثير وكان في القرن السابع الهجري أي بعد سبعمائة سنة، يقول: بينما نحن في بُصرى إذ بنورٍ عظيم لا يزال هذا النور يظهر بالليل والنهار فكنَّا نذاكر عليه في ليلينا فلما سألنا عن ذلك قالوا: نار خرجت من المدينة.

من الذي أعلم نبيه ﷺ بأمر هذه النار قبل أن تخرج بسبعمائة من الأعوام؟

---

[1] أخرجه مسلم(٢١٢٨)من رواية أبو هريرة.

[2] أخرجه البخاري(٧١١٨)من رواية أبو هريرة.

*** قوله رحمه الله: وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها.**

الشرح:

هذه الأشجار التي حولك الورقة تسقط لا يدري بها أحد، ولكن الله يدري، يدري متى تسقط، وكيف ستسقط، وأين ستسقط، وما الذي ستتحول به بعد أن تسقط، تتمزق، وتتشتت كل جزء يكون في مكان الله يعلم مكانه، ويعلم زمان تحوله وثباته.

*** قوله رحمه الله: ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرض.**

الشرح:

تلك الحبات من الرمال، يعلم ربك عددها، ويعلم ربك حركتها، ويعلم ربك مستقرها ومستودعها، لو أنك استحضرت ذلك وأنت تأكل لازدت بأكلك إيمانًا، يأتيك طبق الأرز فيه حبات من أرز هذه الحبات خرجت من أرض وأعواد، ثم درست، ثم نقلت، واختلطت

وتباعدت وتقاربت، وربك يعلم كم حبة ستأكل من هذه الحبوب التي تتخالف وتتناقل منذ أن تخرج إلى أن تصل إلى جوفك والله يعلم.

*** قوله رحمه الله: ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.**

الشرح:

الرطب: هو الشيء الذي ملئ سائلًا من تلك النباتات، واليابس هو الذي خرجت منه رطوبته، الورقة رطبة تعلم قدر ما فيها من ماء؟ الله يعلم، وهذا الماء يخرج شيئًا فشيئًا حتى تصير يابسًا، ربك يعلم قدر ما يخرج منها كل يوم، بل ما يخرج كل ساعة، بل ما يخرج منها كل لحظة، ربك يعلم ذلك وسطره وكتبه في اليوم الفلاني تسقط الورقة الفلانية، تدور في فلكها دورات عدة تسقط في الوقت الفلاني تستقر على ظهرها، أو تستقر على وجهها ثم تتحول إلى مكان كل ذلك مكتوب.

*** قوله رحمه الله: على العرش استوى، وعلى الملك احتوى.**

الشرح:

سبحانه على العرش استوى أي: على العرش علا، وعلى الملك احتوى ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أذكر في فترة الخدمة العسكرية في جهادٍ شريف في أمانة ينبغي أن تؤدى، في ضريبة ينبغي أن تدفع، في جهادٍ شريف، ليس في هذا الجهاد الوضيع الذي يقوم عليه الخوارج، لهم من الله ما يستحقون، لهم من الله ما يستحقون دمروا العباد، دمروا البلاد، وأفسدوا العباد، وجعلوا لأهل الكفر على أهل الإسلام يدًا وسطوة، أذكر في فترة

الخدمة العسكرية كنا في الصحراء، وكنا نحفر مكانًا ننزل فيه آلة من آلالات الحرب وكان ذلك يستدعي منا أن نقوم بحفر يزيد على خمس عشر مترات، انظر إلى هذا العمق وأخذنا نحفر ونخرج الرمال وبعد هذا العمق في أثناء الحفر ترى دودة عظيمة في صخرة معينة كسرت فخرجت منها تلك الدودة، قلنا سبحان الله من الذي يغذيه؟ من الذي يطعمه؟ من الذي أحياه؟ إنه الله رب العالمين في ظلمات الأرض يرزقها ويحييها ويحفظها ويقيمها في غياب من كل أحد في مبعدة عن كل ضوء لا ماء ولا زرع ولا طعام ولكن لها الله رب الخلق والأنام.

على العرش استوى، أي: علا، وعلى الملك احتوى، يعني: ما من شيء إلا وأمره إليه، قل من بيده ملكوت السموات والأرض.

*** قوله رحمه الله: وله الأسماء الحسنى، والصفات العُلا.**

الشرح:

قد يسمى المرء صلاح وهو فساد، وقد يسمى المرء محسن وهو مسيء، وقد يسمى المرء عادل وهو ظالم، وقد يسمى المرء سعيد وهو حزين؛ أما أسماء الله رب العالمين فهي أسماء وأعلام وأوصاف، فكل اسم من أسمائه يدل دلالة على صفة من صفاته، يدل دلالة يقينة على صفة من صفاته، وفعل من أفعاله، له الأسماء الحسنى الذي لا يعتريها نقص، ولا يعتريها عيب فهو مبرئ عن كل نقص وعن كل عيب، وحينما تعرف ذلك لا تسخط عليه في قدره لأنه الحكيم، فكل ما قدره قدَّره بحكمة، كل ما قدره عارٍ عن الظلم، كل ما قدره عارٍ عن الجهل، كل ما قدره عارٍ الغبن، له الأسماء الحسنى والصفات العلا أي: الصفات التي بلغت في الكمال منتهاها، الصفات التي لا تليق إلا به بجلاله وكماله.

*** قوله رحمه الله: لم يزلْ بجمِيعِ صِفاتِهِ وأسمَائِهِ.**

الشرح:

لم يكن ثم كان، ولكن هو الخالق قبل الخلق، وهو الرازق قبل الرزق، وهو السميع قبل المسموعات، وهو البصير قبل المبصرات، فسبحانه لم تطرأ عليه صفة لم تكن له بل فصفاته أزلية كما ذاته أزلية، وأسمائه أزلية كما ذاته أزلية.

*** قوله رحمه الله: تعَالَى أن تكونَ صِفاتُهُ مخلوقة، وأسْمَاؤُهُ مُحدَثَةً.**

الشرح:

لأنه هو الخالق، وتعالى أن تكون أسماؤه محدثة لأن أسمائه ملازمة لذاته وصفاته.

*** قوله رحمه الله: كلَّمَ مُوسى بِكَلَامِهِ الَّذي هُو صفَةُ ذاتِهِ، لا خَلقٌ مِنْ خَلْقِهِ.**

الشرح:

يتكلم بصوت وحرف سمعه موسى الكليم، سمعه من الرب الجليل، تعالى الله عن مشابهة المخلوقين، فكلامه صفة ذاته، وصفة أفعاله، ليست كأصواتنا ولا ككلماتنا، ولكن سبحانه ليس كمثله شيء.

*** قوله رحمه الله: وتَجلَّى للجَبلِ فَصَار دكًّا من جلالِهِ.**

الشرح:

أراد موسى عليه السلام أن يرى عز وجل، فقال الله: ﴿ **لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، جاء في الآثار: إن الذي ظهر من جلال الله على الجبل قدر أنملة؛ من جلال الله ونوره جعلت جبل الطورِ دكًا، فكيف لو ظهر علينا بذاته حجب نفسه رحمة بنا، حجب نفسه اختبارًا لإيماننا، حجب نفسه فتنة في دنيانا حتى يظهر المؤمن بإيمانه، والكافر بكفره وشكه وزيغه.

*** قوله رحمه الله: وأنَّ القرآن كلامُ اللهِ، ليسَ بمخلُوقٍ فيبيدَ، ولا صِفة لِمخلُوقٍ فَيَنْفدَ.**

الشرح:

القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، أنزله على نبيه عن طريق خيرةِ رسله وأنبيائه، القرآن كلام الله وإن تكلمت به ألسنتنا، القرآن كلام الله وإن كُتِب بأقلامنا، القرآن كلام الله وإن حفظته عقولنا، القرآن كلام الله وإن تردد في محاريبنا، ألا ترى أن الشاعر يقول أبيات فتنسب إليه فمهما تكلم بها المتكلمون إنما هي كلامه لا كلام من تكلم به، فكيف بكلامه، فكيف بوحيه، فكيف بقرآنه.

الله رب العالمين خلق الخلق لغاية عظمى، وخلق الخلق لأمر جسيم، الله رب العالمين خلق الخلق من أن أجل أن يُوحد، خلق الخلق من أجل أن يُمجد، خلق الله رب العالمين الخلق من أجل أن يفرد بأسمائه وصفاته، وفي ذلك يقول الله رب العالمين: ﴿ **اللَّهُ الَّذِى**

﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، فهذه السموات في علوها، وهذه الأراضون في دنوها، وهذه البحار على مدى عدد أمواجها، وهذه الفجاج على اتساع أمدادها، وهذه النباتات على اختلاف أشكالها وأنواعها، والأناسي على اختلاف أشكالهم ولغاتهم، والجان على اختلاف أصنافهم وأحوالهم، ما خلق الله ذلك إلا من أجل أن يعرف بأسمائه وصفاته.

وكثيرٌ من الناس يعبد ربًا لا يعرفه، ويعبد إلهًا لا يحبه، ويعبد إلهًا لا يعرف من أسمائه وصفاته ما يقربه إليه، والنبي ﷺ أخبر: «أن لله تسعًا وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»[1]، قال علمائنا عليهم الرحمة: من أحصاها أي علم ألفاظها، وعرف معانيها، وعبد الله رب العالمين بمقتضاها، ودعا الله عز وجل بهذه الأسماء، فإذا ما وقع في الذنب علم

[1] أخرجه ابن عساكر(١١٠٩/٢)من رواية أبو هريرة

أن له ربًّا غفورًا فقال يا غفار الذنوب اغفر لي، علم أنه ستير فإذا خشي الفضيحة قال يا ستير العيوب استرني، إذا أراد الرزق وعلم أن الرزق بيد الله قال يا رزاق ارزقني، وإذا خشي عدوًا فإنه يلجئ إلى الله رب العالمين يقول يا ذا الجلال والإكرام يا ذا العظمة والجبروت احفظني من شر كل إنس وجان، ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[الأعراف١٨٠]، لذا من عرف أسماء الله عرف سبيل الوصول إليه، ومن لم يعرف أسماء الله فهو الحياة لاعبٌ بين اللاعبين، فهو في الحياة هازلٌ بين الهازلين، فهو في الحياة مائعٌ بين المائعين.

ومن أجل أن تعرف عظمة الله عز وجل، فلابد أن تعرف شيئًا من صفاته، فهذه السموات السبع بجانب الكرسي كحلقة ملقاة في صحراء شاسعة، والكرسي موضع قدم الرب، والكرسي في العرش وعلى العرش يستوي الله تبارك وتعالى استواءً يليق بجلاله وكماله، وهو بقدرته يحفظ ويكلئ خلقه جميعًا، ولا يتعبه من ذلك شيء، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ **اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا**

﴿ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهذا شيء من صفات الله عز وجل.

فهو الأعلى وهو سبحانه له العلو المطلق، علو الذات فهو بذاته مستو على عرشه، وعلو الشأن فهو سبحانه بيده ملكوت كل شيء، وعلو القهر فهو عليٌ على خلقه وغالبٌ على أمره إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون، العظيم في ذاته، العظيم في أسمائه وصفاته، العظيم في أحكامه وأقداره، العالم بكل شيء، يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن كيف كان لو كان يكون.

الخبير ببواطن الأمور ظاهرها وخفيها، علانيتها وسرها، يعلم ما توسوس به نفس الإنسان، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا

﴿تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ولا يعجزه ذلك: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ومن عظيم قدرته، ومن عظيم أسمائه وصفاته.

مما له في صفاته أنه يدبر كل شيء فهو المدبر لشؤون مخلوقاته، فخلقهم من العدم، وأوجدهم وتكفل بأمر أرزاقهم، وبأمر معايشهم، وبأمر مآكلهم ومشاربهم، فسبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فما بينك وبين الله لا يعلمه إنسان، ولا يصل إليه عقل ولا جنان، والملائكة صاعدة نازلة بأمر الله رب العالمين في خلقه، يحيي ويميت، يعطي ويحرم، يعز ويذل، يجعل ما عنده لعبده، ويزيل ما عنده من نعمه عنه.

وهـو القـدير: ذو القـدرة التامـة لا يستعصـي عليـه شـيء أراده، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِـن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًـا قَـدِيرًا** ﴾ [فاطر: ٤٤]، لو الإنس والجان اجتمعوا جميعًا فسأل كل واحد منهم مسألته، فأعطى كل سائل سؤاله ما نقص ذلك من ملكه شيء إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر.

وهـو السـميع: الـذي يسـمع دبيـب النملـة السـوداء علـى الصـخرة الملساء في الليلة الظلماء، يسمع جميع الأصوات على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات في جميع الأوقات، لا يشغله صوت عن صوت ولا دعاء عن دعاء، يستوي عنده السر والعلانية، يستوي عنده الظاهر والباطن، أحاط بسمعه جميع المسموعات فما من حيوان قل أو كبُر، ومـا إنسـان عظـم أو حقـر إلا والله رب العـالمين يسـمع مـا يجـول في همهمته وما يكون في إسراره.

وهو البصير: الذي لا يحجب بصره شيءٌ عن ذوات خلقه، ولا عن أعمالهم، ولا أحوالهم في دار الدنيا والبرزخ والآخرة، وهو عالم بجميع حاجاتهم لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فسبحان السميع البصير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]؛ سبحانه وتعالى يرى انتقال الدماء في الحيوان الصغير، ويرى تحرك الأعصاب في الحيوان الصغير والكبير، ويرى سريان الماء في الأغصان والفروع، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهو الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، له صفات المجد والكبرياء والعظمة، يقول القائل: الله أكبر، ومعنى: لا أكبر منه عز وجل، لا أكبر منه يستحق أن نصرف عبادتنا له، فالله هو الكبير ذاتًا، وهو الكبير أسماءً، وهو الكبير صفات وأفعالًا، فهو أكبر من كل شيء، وكل شيء من مخلوقاته فهو دونه سبحانه.

وهو مستوٍ على عرشه: استواءً يليق بجلاله وكماله، والعرش من أعظم مخلوقات الله، خلقٌ عظيم لا يحيط به إلا الله رب العالمين، ويحمله عددٌ من الملائكة يسموا بالقُربيين، ذكر النبي ﷺ: «ملكًا من ملائكة الله رأسه تحت العرش وقدمه في الأرض السابعة»، ومع علوه، ومع ارتفاعه ومع عظيم شأنه، فعلمه محيط بكل شيء، ومطلعٌ على كل شيء، فهو مستوٍ على عرشه؛ ولكن مع خلقه بعلمه، مع خلقه بإحاطته: ﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١]، قال الإمام مالك: الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان.

ومعية الله مع عباده على نوعين: معية عامة ومقتضى هذه المعية إحاطته سبحانه بخلقه، وعلمه بأعمالهم خيرها وشرها، ويجازيهم عليها.

وأما المعية الخاصة: فهي معية الله لأوليائه، معية الله لأنبيائه، معية الله عز وجل للمؤمنين، : ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة: ٤٠]، قالها النبي الأمين لأبي بكر الصديق لما خشي على النبي ﷺ من أعدائه، فقال له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[١]، فيدخل في ذلك ملائكته ورسله وأنبيائه وأبناء الرسل والأنبياء، فالله معهم بنصره ينصرهم ويؤيدهم ويحفظهم ويكلؤهم.

ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان: فكل ما يجري في خلجات عقلك، وكل ما يجري في حنايا قلبك، وكل ما يجري في تلافيف ضميرك، الله رب العالمين به عليم، ومن رحمته أنه قد عفا عما يجول في الصدر فإن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به نفسها»[٢]، وهو سبحانه مع علو شانه وعظيم قدره هو أقرب إلى عبده من حبل الوريد: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦] أي: أن الله قريب من عباده بعلمه واطلاعه وإحاطته،

---

[١] أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)من رواية أبو بكر الصديق.

[٢] أخرجه البخاري(٢٥٢٨)من رواية أبو هريرة.

وتفسير آخر: قريب منك بملائكته؛ فملائكة الله الكرام الموكلة بهذا الإنسان على اختلاف طباقاتهم منهم: الكرام الكاتبون، ومنهم الموكلون بالأرحام، ومنهم الموكلون بالأرزاق لا يفارقون الإنسان قال تعالى: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨]، ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الرعد: ١١]، والمعقبات هي الملائكة التي تحيط بك، فملكٌ عن يمينك وملكٌ عن يسارك وملكٌ من أمامك وملكٌ من خلفك، ووكل الله بك ملكًا يصرف عن وساوس الشيطان.

وجعل الله رب العالمين لك حافظًا إذا أويت إلى مضجعك ثم قرأت آية الكرسي، وكذا يجعل الله عليك حافظًا إذا أصحبت فقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ويرافقك ملك إذا خرجت من دارك فقلت: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، فانظر يرعاك الله كم عدد الملائكة

التي تحيط بك في ليليك ونهارك هذا قدرك عند ربك ومولاك، هذا قدرك عند الذي خلقك فسواك، فهل أنت تعلي من شأنك كما أعلى من شأنك؟ هل أنت تستجلب ملائكة الله؟ أم أن الأبعد بسيئاته بغدراته بفجراته يقسي الملائكة عنه ويقرب منه الشياطين.

سبحانه عليم: ما من حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، أيعلم حركة الحبة من الحنطة والشعير، والرمل والتراب، ولا يعلم حركة القلب والضمير، ولا يعلم حركة اللسان، ولا يعلم حركة الجوارح والجنان، ولا رطب ولا يابس يعلم عدد ما في الرطب من ذرات ماء وما يخرج منها في الهواء، كل ذلك مكتوب عنده قبل وجوده في اللوح المحفوظ، وعلمه الله قبل وجوده.

على العرش استوى، وعلى المُلك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفاتُ العُلا، لم يزل بجميع صفاته وأسمائِهِ، تعالى أن تكون صفاتُهُ مخلوقةً، وأسماؤُهُ مُحدَثةً.

كلَّم موسى بكلامِهِ الذي هو صفةُ ذاتِهِ، لا خلقٌ من خلقِهِ، وتجلَّى للجبلِ فصار دكًّا من جلالهِ

وأنَّ القرآن كلامُ اللهِ، ليسَ بمخلُوقٍ فيبيدَ، ولا صِفة لِمخلُوقٍ فَيَنْفدَ.

علا سبحانه على عرشه علوًا يليق بجلاله وكماله، لا كما يقول المحرفون: ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه: ٥]، الرحمن على العرش استولى، وهل هناك من منازعٌ ينازع الرحمن؟ وهل تسلط على العرش أحدٌ دون الخلَّاق العظيم؟ سبحانه وتعالى هذا بهتان عظيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

وله الأسماء الحسنى: لا يشاركه في ذلك أحد، فكم من إنسان يسمى سعيد وهو حزين، وكم من إنسان يسمى صلاح وهو طلاح، وكم من إنسان يسمى محسن وهو مسيء، وكم من إنسان يسمى

وصفة الاسم أبعد ما تكون عن صفة المسمى، وأما الله عز وجل فأسمائه أوصاف وأعلام، أسماء الله رب العالمين أوصاف على ذاته أعلام على صفاته، يقول النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة»[1]، وهي بعض أسماء ربنا تبارك وتعالى وليست كل أسمائه لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم إني أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابه، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[2]، فأسماء الله لا تعد ولا تحصى، وأما تلك التسع وتسعون فهي من أسماء الله لا هي كل أسماء الله، وهناك قواعد وأركانٌ وأصول يجب على المسلم أن يلتزم بها في التعامل مع أسماء الله وصفاته:

أولًا: أسماء الله وصفاته من علم الغيب التي لا يجوز الكلام فيها إلا بما جاء به الوحي من كتاب الله، وسنة رسوله، فالله سمى نفسه بالسميع فلا تقل: كيف يسمع؟، وسمى نفسه بالبصير فلا تقل: كيف

---

[1] تقدم تخريجه

[2] أخرجه أحمد (٣٧١٢) واللفظ له، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني (١٠/٢١٠) (١٠٣٥٢) باختلاف يسير.

يبصر؟، وسمى نفسه بالعليم فلا تقل: كيف يعلم؟؛ لأن الإحاطة بذلك لا يقوى عليها مخلوق، ولكن نؤمن بما جاء في تلك الأسماء، فاسم الله البصير يدلك دلالة قاطعة على رؤية الله لك في جميع أفعالك وأحوالك، واسم الله السميع يدلك دلالة قاطعة على سماع الله رب العالمين لأقوالك، واسم الله الخبير يدلك دلالة قاطعة على علم الله بما يجول في نفسك وخاطرك وقلبك.

ومما ينبغي على المسلم أن يثبت لله صفات العُلا التي بلغت الكمال المطلق لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فتثبت لله ما أثبته لنفسه من غير تحريف ولا تكييف، ولا تمثيل ولا تعطيل، نثبت لله ما أثبته لنفسه من أسمائه وصفاته في كتابه وعلى لسان رسوله، ونؤمن إيمانًا يقينيًا أن الله عز وجل لا يعتريه نقص ولا عيب، فصفاته صفات كمال لا نقص فيها، نثبتها لله من غير ما تشبيه، ولا تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وقد ذكر علمائنا عليهم الرحمة: أن إبليس قد جلس يومًا مع أبنائه فقال له: يا أبانا ما لك تفرح بموت العالم، ما لا تفرح بموت العابد، وإنا لنصيب من العابد ما لا نصيب من العالم، فقال: تعالوا بنا فذهب إلى عابد في صومعته، وقال يا شيخ: هل يستطيع ربك أن يجعل الدنيا في بيضة، فقال ذلك العابد لو كان يستطيع لفعل، فنظر إلى أبنائه انظروا إلى هذا أنكر قدرة الله وكفر به وهو يعبده ويذكره، ثم أخذهم وسار إلى عالم يمازح طلابه وأبنائه، فقال له يا شيخ: هل يستطيع ربك أن يجعل الدنيا في بيضة، فقال: سبحان الله وما يعجزه وهو على كل شيء قدير، بيده مقاليد الأمور إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، فقال: انظروا إلى ذلك العالم الذي ثبت من حوله، وثبت على إيمانه، وهو يمازح طلابه وغلمانه، هذا هو الفرق بين العالم بالله والجاهل به.

وهو سبحانه لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، أي: أن أسمائه وصفاته أبدية أولية ليس لها ابتداء، آخرية ليس لها انتهاء، لا تزول عنه فلم

يتصف الله بصفة لم يكن متصفًا أزلًا وأبدًا، ولم يتسم باسم لم يكن يسمى أزلًا وأبدًا، فهو الخالق قبل خلق الخلق، وهو الرازق قبل إنزال الرزق، وهو المحي قبل أن يخلق الحياة، وهو المميت قبل أن يخلق الموت، وهو سبحانه بأسمائه وصفاته لم يطرأ عليه شيءٌ حادثٌ من أسمائه وصفاته.

تعالى سبحانه أن تكونه صفاته مخلوقة، وأسماؤه محدثة، فهو منزهٌ عن ذلك فأسماؤه غير محدثة، وهو متصف بصفاته، متسمٍّ بأسمائه أزلًا وأبدًا.

كلَّم موسى بكلامِهِ الذي هو صفةُ ذاتِهِ، لا خلقٌ من خلقِهِ، نؤمن بذلك كأننا سمعنا كلامه، وشاهدنا موسى عند سماعه عليه السلام، فنثبت صفة الكلام لله، وأنه كلَّم موسى عليه السلام، وأن موسى سمع كلام الله بصوت وحرف ولكن ليس كصوت كصوتنا، ولا برنةٍ كرنة كلامنا، فسبحانه منزهٌ عن مشابهة خلقه في كلامهم وأحوالهم، وهو سبحانه متكلم من غير أن يتكلم، فإن الله عز وجل

يتكلم ويسكت وهو حال كلامه متكلم، وحال سكوته كذلك متكلم فلا بداية لكلامه ولا نهاية له، يتكلم إذا شاء كيف شاء بما شاء، فالكلام صفة من صفاته، وصفاته غير مخلوقة، وكلامه غير مخلوق، وانظر إلى جلال ربك، وانظر إلى عظمة ربك لما أراد موسى عليه السلام أن يرى الله عز وجل ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الأعراف١٤٣]، جاء في الآثار أن ما ظهر من جلال الله إنما هو قدر أنملة من أصبع، فجعلت الجبل دكًا وخر موسى صعقا.

والقرآن كلام الله غير مخلوق، القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، القرآن كلام الله أنزله على نبيه على صفيه ونجيه ليكون نذيرًا وبشيرًا للخلق إلى قيام الساعة.

ليس بمخلوقٍ فيبيد، ولا صفة لمخلوقٍ فينفَدَ، فكلمات الله لو كانت البحار كلها مدادًا، والأشجار كلها أقلامًا ما نفدت كلمات الله عز وجل، فنؤمن بأن الله تبارك وتعالى أن الله مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله، لا يخفى عليه شيء في ملكه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى الأزلية التي لا تنفك عنه عز وجل، وأنه كلم موسى عليه السلام، ونؤمن أن القرآن كلامه عز وجل أنزله على رسوله مُحَمَّد ﷺ، وأن القرآن غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، سبحانه سبحانه.

*** قوله رحمه الله: والإيمانُ بالقَدرِ خيرِه وشرّه، حُلوِهِ ومُرّهِ، وكلُّ ذلك قد قدَّرَهُ اللهُ ربُّنا، ومقاديرُ الأُمُورِ بيدِهِ، ومصدرُهَا عن قضائِهِ.**

عَلِمَ كلَّ شيءٍ قبلَ كونِهِ، فجرى على قَدَرِهِ، لا يكونُ من عِبَادِهِ قولٌ ولا عملٌ إلَّا عملٌ إلَّا وقد قضاهُ في الأزلِ، وسَبَقَ عِلمُهُ به: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يُضلُّ من يشاءُ فيخْذُلُه بعدلِهِ، ويهْدِي من يشَاءُ فيُوفِّقُهُ بفضلِهِ، فكُلٌّ مُيسَّرٌ بتيْسِيرِهِ إلى ما سَبَقَ من عِلمِهِ وقدرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سعِيدٍ.

تَعَالى اللهُ أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريدُ، أو يكونَ لأحدٍ عَنْهُ غِنًى، أو يكُون خالِقٌ لشيءٍ إلَّا هُوَ، ربُّ العِبَادِ وربُّ أَعْمَالِهِم، والمُقدِّرُ لحَرَكَاتِهِم وآجَالِهِم.

الشرح:

الإيمان بالقضاء والقدر، يريح الله به القلوب، وينير الله به العقول، ويشرح الله به الصدور، تهدئ به البال والخاطر، وذلك أن السخط إنما

يورث السخط، والرضا يجلب الرضا كما قال النبي ﷺ: «من رضي فله الرضا، ومن سخِط فله السخط»[1].

والإيمان بالقضاء والقدر أن تعلم أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الخلق، كتب أرزاقهم وآجالهم، وخلق أعمالهم وأقدارهم، وخلق مصائرهم، ففرغ ربكم تبارك وتعالى من كل شيء قبل أن يخلق أي شيء، «خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا ربِّ ما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء إلى يوم القيامة»[2]، فرغ الأمر وانتهى الخطب، وما هو إلا العمل فميسر للجنة، وميسر للنار ولا يظلم ربك أحد.

القدر: هو تقدير الله تعالى للكائنات، حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته، وهو أحد أركان الإيمان الستة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره كما جاء في حديث جبريل حينما سأل النبي الأمين: «ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم

---

[1] صحيح الترمذي(٢٣٩٦)من رواية أنس بن مالك،وصححه الألباني.

[2] صحيح أبي داود(٤٧٠٠)من رواية عبادة بن الصامت، وصححه الألباني.

الآخر، والقدر خيره وشره»[1]، أركان ست كل ركنٍ يقوم على الذي قبله، حتى تأتي ثمرة الإيمان في الإيمان بالقضاء والقدر، وأطيب الناس عيشًا هم الذين أقاموا أركان الإيمان، أحسن الناس حالًا الذين علموا أن ما يجري عليهم إنما هي من أقدار الله عز وجل.

ولا يقوم الإيمان بالقدر إلا على أركانٍ أربع:

الركن الأول: الإيمان بعلم الله الشامل كل شيء.

الركن الثاني: أنه كتب ذلك العلم، فكتب ما يعلمه من أمور خلقه في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الخلق.

الركن الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات، أي: كل ما يكون من مخلوق ومعمول، ومقول ومفعول لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى.

الركن الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله وهو خالقها، ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات: ٩٦].

---

[1] أخرجه البخاري(٥٠)من رواية أبو هريرة.

فمقادير الأمور بيد الله، هو الذي يتصرف في المخلوقات يدبر أمورهم في الدنيا والبرزخ والآخرة، لا حول ولا قوة لأحدٍ من مخلوقات الله إلا إذا أعانه الله وقدره، وهذه الأفعال مصدرها عن قضائه لا شريك له في تدبير الأمور، والتصرف في المخلوقات مخلوقات الأرض والسماء ليس مع الله شريك، وليس له معين، بل هو الذي انفرد بتدبير الأمور كلها خلقًا للمخلوقات، ورزقًا لهم وتصرفًا فيهم فهو المالك لذلك كله، والمتصرف في جميع مخلوقاته وذلك مقتضى ربوبيته وأسمائه وصفاته.

والأمر بيسر وسهولة أن تعلم أن أقدار الله على ثلاث أحوال:

الأول: فقدر لله فيك.

الثاني: وقدر لله عليك.

الثالث: وبين قدر الله فيك وقدر الله عليه، يأتي قدر الله منك.

قدر الله فيك هو ما جعله لك من خلقك، وإيجادك، وطولك، ولونك، وأبيك وأمك، وبلدك ورزقك، هذا هو قدر الله فيك، أن

يكون المرء صحيحًا أو أن يكون مريضًا، أن يكون غنيًا أو أن يكون فقيرًا، أن يكون عظيمًا أو أن يكون حقيرًا، أن يكون عالمًا أو أن يكون جاهلًا، هذا قدر الله فيك.

وأما قدر الله عليك فهي أقداره بأوامره وأحكامه وابتلائته، يجعلك قويًا ويأمرك بما أمرك به من صلاة وصيام وحج وجهاد، وأنت تقدر على ذلك، فقدر الله فيك القوة وقدر الله عليك التكليف.

ثم يأتي قدر الله منك إما أن تعمل وتخضع، وإما أن يكسل الأبعد ويعرض، فإن عمل وخضع فقد صار لله طائعًا، وصار على ذلك مثابًا، وأما إذا كسل وأعرض فإنه يسمى عند الله عاصيًا ويكون على ذلك العقاب، ويكون على ذلك الجزاء.

هذا كله علمه الله قبل أن تكون، علم الله ما سيكون فيك، وما سيكون عليك، وما سيكون منك، وجعل ذلك كله بإرادتك واختيارك، لم يجبر عبدًا من عباده أن يختار شيئًا بغير اختياره، أو أن يرضى بشيء بغير رضاه، وإنما ترك الأمر لك : ﴿ **فَمَنْ شَاءَ**

﴿فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، من شاء أن يطيع فليطيع، ومن شاء أن يعصي فليعصي، ولكن الجزاء بالجنة للطائعين، والجزاء بالنار للعاصين، ولا يظلم الله رب العالمين أحدًا من العالمين.

* قوله رحمه الله: **ومصدرُهَا عن قضائِهِ، عِلمَ كلَّ شيءٍ قبلَ كونِهِ، فجرى على قَدَرِهِ، لا يكونُ من عِبَادِهِ قولٌ ولا عملٌ إلَّا عملٌ إلَّا وقد قضاهُ في الأزلِ، وسَبَقَ عِلمُهُ به.**

الشرح:

وهذا هو الحق، أن الله علم كل شيء قبل كونه كما جاء في الحديث: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[1]، القلم خلقه الله، والقلم جعل الله رب العالمين مداده على حسب صفاته،

[1] تقدم تخريجه

فهو لا يظلم أحدًا، وهو عليم بما سيكون قبل أن يكون، فكتب ما هو كائن قبل كينونته، وكتب الله ما هو صائر قبل صيرورته.

*** قوله رحمه الله: يُضلُّ من يشاءُ فيخْذُلُه بعدلِهِ، ويهْدِي من يشَاءُ فيُوفِّقُهُ بفضلِهِ.**

الشرح:

فما ظلم من هُدي، وما ظلم من ضل، وإنما من ضل تركه الله لأنه اختار الضلال، ومن اهتدى أعانه الله لأنه أراد الهداية، من يشاء الله يضلله لأنه اختار الضلال، ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم لأنه أراد طاعة الله رب العالمين، كلُّ ذلك مصدرها عن قضائه بدايتها ونهايتها، قدرًا وأزلًا، علم كل شيء قبل حدوثه ووقوعه، فجرى المكتوب على قدر علمه، على قدر حكمه وأمره، فجرى على قدره كل ميسرٌ تيسره، فمن يسر للخير فلما اختار الخير يسره الله لذلك، والميسر للشر اختار الشر فيسره لذلك.

***قوله رحمه الله: تَعالى أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريدُ.**

الشرح:

تعاظم الله وتنزه عن وقوع شيء في ملكه خارجًا عن تدبيره وإرادته، فالقاتل يقتل، والزاني يزني، والكافر يكفر، والطائع يطيع، والقارئ يقرأ، والمتبتل يتبتل كل ذلك بإذنه، كل ذلك بأمره، كل ذلك بإرادته، فعَّال لما يريد فالملك مُلكه، والأمر أمره له الخلق وله الأمر بدون شريك ولا ظهير، أو يكون لأحد غنى عنه ليس أحد وإلا وهو مفتقرٌ إلى الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥]، فالسماء مع ارتفاعها والأرض مع دنوها، والبحار مع اتساعها، والأناسي مع أعدادها، والجان في خلقها، والذرات في صغرها كل ذلك فقير إلى الله، فقير إلى إيجاده، فقير إلى تصريفه، فقير إلى تدبيره، فهو سبحانه الخالق لكل شيء: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [الزمر: ٦٢]، فهو الخالق للفاعل وفعله، وهو الخالق للصانع وصنعته، وهو الخالق

للعاصي ومعصيته، فجميع المخلوقات من متحركٍ وساكن، وناطقٍ وجامد كلها لله تبارك وتعالى، لم يكن لأحدٍ في ذلك بد؛ لأن الله هو الغني عن عباده وهم الفقراء إليه.

***قوله رحمه الله: وهو رب العباد، ورب أعمالهم.**

الشرح:

أي: خالق العباد، وخالق أعمالهم، فهو المربي لجميع مخلوقاته، فمن عصاه إنما عصاه بتلك الأدوات وتلك الطاقات وتلك الأفعال التي هي في أمرها بدءًا ومنتهى من الله ذي الجلال والإكرام، وتربية الله لمخلوقاته على نوعين:

تربية عامة: فيدخل فيها جميع مخلوقات الله بالخلق والإيجاد والرزق والحياة، وغير ذلك مما يحتاج المخلوق إليه في هذه الحياة، فهي تربية عامة تشمل المؤمن والكافر، تشمل البار والفاجر، تشمل المكلف وغير المكلف.

وأما **التربية الخاصة**: وهي تربية الله لعباده المؤمنين فتشمل تربيتهم لملائكته الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا سبيل لهم إلى المعصية، وتربيته لأنبيائه ورسله صفوة خلقه ربَّاهم الله فاصطفاهم واجتباهم، وأنزل عليهم من وحيه ما شاء وجعلهم واسطة بينه وبين الخلق، فقاموا بتبليغ ما أمروا به على أكمل وجه؛ لأن الله عصمهم وأعانهم، وتربية الله لأتباع الرسل ربَّاهم على الإيمان اصطفاهم من بين الخلق والأنام جعلهم من أولياء الرحمن وهم يتفاوتون في ذلك تفاوتًا عظيمًا، فكل من أخذ نصيبه من متابعة الرسل والأنبياء فذلك من تربية الله تبارك وتعالى له.

*** قوله رحمه الله: والمقدِّر لحركاتهم وآجَالِهِم.**

الشرح:

قدر الله تعالى الأقدار، وخلق الله تعالى الأعمال والحركات والسكنات وقضى الله الآجال، فما من أحدٍ إلا وله مدة محدودة

وأجل معدود: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

عبد الله لماذا يتوتر الإنسان، ولماذا يحدث الشقاق والخصام، ولماذا يعاني الإنسان؟ كل ذلك بعدم الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأن الذي يؤمن بالقضاء والقدر لا يعيش مع المقدور لا يعيش مع المفعول لا يعيش مع المقضي، وإنما يعيش مع المقدر ومع الذي قضى وحكم، فينظر إلى الأمر في أصله ما سلط الله عليك من سلط إلى ليرى حلمك، ما حرم الله من حرم إلا ليرى صبرك، ما أذل الله مِن خلقه من أذل إلا ليرى تضرعه إلى ربه.

﴿ الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣]، إن الحياة ليست بدار عافية، الحياة دار ابتلاء، سفيه وأحمق من ينتظر فيها

سلامة البدن، سفيه وأحمق من ينتظر وفرة المال، سفيه وأحمق من ينتظر هدوء الخاطر والبال؛ لأن الله رب العالمين جعلها دار نصب وتعب، جعلها دار تكليف وعمل.

أرأيت عاملًا يأخذ أجرته من غير أن يصيب العمل على حقيقته، أرأيت موظفًا يأخذ راتبه بلا معاناة في حضوره وكده وعمله، لما نجعل لله ما لا نرضى أن يكون لنا، أترضى عبد الله أن يأتي عاملٌ إلى بيتك فيفعل ما تريده نفسه لا ما تريده أنت، ويفعل ما يحلو له لا ما يحلو لك ثم يستريح بغير ما عناءٍ ولا تعب، ثم بعد ذلك يطالبك بأجرته، يطالبك بإطعامه وسقايته، يطالبك بنفقته ما الذي قدمه، وانظر إلى العوض يأتي إليك العامل بجده واجتهاده وسعيه وبذله من أجل أن يرضيك من أجل أن يفعل مرادك فإذا ما رأيت منه ذلك أقبلت عليه رعاية وخدمة وهيئت له من الطعام والشراب ما يحلو له ثم كنت مؤنسًا له مجالسًا له، فإذا ما فرغ من عمله بذلت له من مالك بطيب خاطر وصار بعد ذلك من أصحابك وخِلانك.

فانظر إلى العامل الذي يعرف حدود عمله، وانظر إلى العامل الذي يتهاون ويضيع ما كلف به، الله رب العالمين ما خلقنا ليعافينا وإنما خلقنا ليبتلينا، أعطاك ويحرمك، يرفعك ويضعك، يعزك ويذلك، والفعل فعله والأمر أمره فمن رضي بالله محييًا فليرضى بالله مميتًا، ومن رضي بالله معطيًا فليرضى بالله مانعًا، ومن رضي بالله معزًا فليرضى بالله مذلًا، ومن رضي بالله آمرًا فليرضى بالله عز وجل ناهيًا.

وأما تلك القسمة الضيزى التي يريدها الخلق، يريدون ربًّا على أهوائهم، يريدون أقدارًا على مرادهم، وأنت عبد والعبد على مراد الرب لا مراد له، وكلما اجتهد العبد في تحقيق مراد ربه علا قدره وعزَّ أمره ونال ما أراد من شأنه، نبيك ﷺ لما عاش العبودية الحقة لله صار خليلًا لربه ومولاه، اصطفاه الله على ملائكته، اصطفاه الله على أنبيائه، اصطفاه الله على رسله، أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو خاضع، وهو ذليل، وهو مستكين، وهو يهضم نفسه لا يرى لها قدر، هذه هي حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر، أن ينزل الأمر

مع مرارته فتنظر إلى من أمر به، أن ينزل القضاء على شدته فتنظر إلى من قضاه، فإذا ما نظرت إلى الله عند قضائه وقدره تجملت لسمعه وبصره، وهكذا كان أنبياء الله، وهكذا كان رسله، وهكذا كان أولياؤه، إذا نزل عليهم الأمر، قالوا: لله ما أعطى، ولله ما أخذ، وكل شيء عنده بمقدار، يموت الأبناء فلا تتغير الأحوال ولا تتكدر الخواطر ولا يضطرب البال، يخسر من يخسر من المال فلا تتأثر الأحوال، ولا تتغير الأقوال وإنما لا نقول إلا ما يرضي ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي قول الله تبارك: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر: ٤٩] في هذه الآية حلٌّ لمشاكل العالم كله، في هذه الآية خروج من الضوائق والمضائق، في هذه الآية حل مشاكل المسلمين، ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ أي: كل ما يحدث في الكون مما يحبه الإنسان ولا يحبه، مما يرضى الإنسان به أو يسخط عليه كل ذلك كائن بقدر الله عز وجل، والقدر بمعنى الكتابة، والقدر بمعنى قضاء

المكتوب، فما من شيء إلا وقد كتب الله إياه قبل أن يقع على الأرض، وما من شيء إلا قضاه الله عز وجل قبل أن يكون كائنًا في الحياة.

لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون دائمًا: كل شيء بقدر كل شيء بقدر، وكان الواحد منهم إذا تعرض لما لا يحب كان يرد الأمر إلى الله، لله ما أعطى ولله ما أخذ وكل شيء عنده بمقدار، وكانوا يعلمون أن ما كتبه الله كائنٌ لا محالة، وأن ما كتبه الله رب العالمين الخير فيه كل الخير وأنه لا مجال لدفعه، كانوا يقفون عند قول النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»، فما يقع عليهم من نفع كانوا يعلمون أن الذي قضاه هو الله، وما يقع عليهم من ضر كانوا يعلمون أن الذي قدره هو الله.

وهذا حال نبيكم ﷺ في قضاء الله عليه فيما تعرضت له أمنا عائشة رضي الله عنها حين اتهمت بالزنى حاشاها أن تكون، حين اتهمت بارتكاب الفاحشة وظل المنافقون يرددون الأمر به يقطعون، وهذا من قدر الله على نبيه ومصطفاه؛ ولكن انظر إلى حاله ﷺ يتناول الناس عرضه، يتكلمون في زوجه ومع ذلك يدخل عليها لا يزيد على قوله: «يا عائشة كيف تيكم»[1] أي: كيف حالكم، كيف أمركم، لا يلوي على شيء ولا يتهمها بشيء ولا يظن فيها شيء، وظل الأمر على ذلك حتى علمت أمنا عائشة الخبر، فلما واجهت رسول الله ﷺ به قال لها يا عائشة: «إن كنت قد لممت بشيء من ذلك، فاستغفري الله وتوبي إليه»[1]، الخطب جسيم، والأمر عظيم إنه عرض النبي الأمين، إنه فراش رسول الله الحبيب، ومع ذلك يقابل النبي ﷺ قضاء الله على مراد الله يقول الله رب العالمين: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ** ﴾

[1] أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٦]، هذه الحال لا تكون إلا لمن آمن بالقضاء خيره وشره، حلوه ومره، هذه الحال لا تقوم إلا على أربعة أركان:

الركن الأول: الإيمان بأن الله تعالى عالمٌ بكل شيء جملة وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، سواء كان ذلك المعلوم مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده، فهو عالم بما يكون منه قبل أن يكون، وعالمٌ بما يكون من خلقه قبل أن يكون، وكتابته على قدر علمه وهو بكل شيء عليم، وهو بكل شيء محيط يعلم ما كان في الماضي، وما هو كائن في الحاضر، وما سيكون في المستقبل، وما لم يكن كيف كان يكون لو كان، علمه لا ينقطع، علمه محيط شامل، عالم بكل معلوم.

الركن الثاني من أركان الإيمان بالقدر: تعلم أن الله كتب ذلك الذي يعلمه من شأن نفسه وشأن خلقه في اللوح المحفوظ وفي هذا يقول الله

عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]، وقد ذكر ذلك النبي النذير البشير ففي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[1]، فمهما يعتريك من فقرٍ أو غنى، مهما يعتريك من عطاءٍ أو حرمان، مهما يعتريك من مرضٍ أو صحة، مهما يعتريك من عز أو ذل، كل ذلك مقدرٌ عند ربك وله حكمة في قضائه، يغني لحكمة، ويفقر لحكمة، يصح لحكمة، ويمرض لحكمة، ويذل لحكمة، ويرفع لحكمة فسبحانه من له الأمر كله وإليه ترجعون.

الركن الثالث من أركان الإيمان بالقضاء والقدر: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى، سواءً كانت مما يتعلق بفعله أم مما يتعلق بفعل المخلوقين، قال الله فيما يتعلق بفعله: ﴿ وَرَبُّكَ

[1] أخرجه مسلم(٢٦٥٣)من رواية عبدالله بن عمرو.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، فله مشيئة في أفعاله، وقال الله عز وجل: ﴿وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]، فيعطي من أراد ذكرًا ويعطي من أراد أنثى، ويزوج من أراد ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا، هذا في أمر فعله.

وأما فيما يتعلق بفعل المخلوقين فقد أثبت الله لهم مشيئة، ولكن مشيئتهم تابعة لمشيئته، مشيئة الخلق تابعة لمشيئة الله، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، لك مشيئة ولله مشيئة، ولكن مشيئتك تابعة لمشيئة الله، فإذا ما أردت أن تقضى حاجاتك فالجأ إلى من بيده مشيئتك.

الركن الرابع من أركان الإيمان بالقدر: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها وصفاتها وحركاتها، قال الله عز وجل: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [الزمر: ٦٢]، فالله خالق الإنسان وخالق فعله، والله خالق الصنعة وخالق لصانعها، وقال سبحانه: ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان: ٢]، وقال عن نبي الله إبراهيم لأنه قال لقومه: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات: ٩٦]، فكل ما يقع على الأرض مما يحبه ومما لا يحبه إنما هو خلقه، أذن به كونًا وبين أمره شرعًا والمرء مخيرًا بين ما يريد فيفعل، وبين ما لا يريد الله فيتجرأُ، وعلى هذا يكون الجزاء بالجنة أو الجزاء بالنار.

والإيمان بالقدر على ما وصف لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله، وأن يكون له اختيار في أموره؛ لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك، لك مشيئة ولله مشيئة، وقد جعل الله مشيئتك في أن

تفعل ما تريد من أجل أن يحاسبك على ما أمرك به أو نهاك عنه، وقد جاءت الأدلة في الشريعة على ذلك فقد قال الله عز جل: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩]، فالذي آمن آمن بمشيئته، والذي كفر كفر بمشيئته واختياره، وقال سبحانه: ﴿ **فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**﴾ [النبأ: ٣٩]، وقال الله في أمر الولد: ﴿ **فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**﴾ [التغابن: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فللعبد مشيئة تأتي بها أفعاله، وتأتي بها أقواله، وتأتي بها حركاته، تأتي موافقة بأمر الله وشرعه، أو تأتي مخالفة لأمر الله ونهيه، فالأولى يكون صاحبها مثاب، والثانية يكون صاحبها معاقب.

وأما الواقع فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة يفعل بهما يشاء، ويترك بهما ما يشاء، ويفرق بين ما يقع بإرادته كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالرِعْدَةِ والارتعاش، لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ ولأن الكون كله ملك لله تعالى فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته.

والإيمان بالقدر لا يمنح العبد، حجة على ترك واجب من الواجبات، أو فعل معصية من المعاصي؛ لأن الذي يحتج بذلك مردود عليه احتجاجه، قال تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فالكفار الذي كفروا بالله، والمشركون

الذين أشركوا ردوا كفرهم وشركهم إلى الله، فقالوا: ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** ﴾، فكذبهم الله عز وجل ورد عليهم زعمهم فقال: ﴿ **كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾.

وقال تعالى في شأن الرسل: ﴿ **رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلما أرسل الله الرسل من أجل أن يأمروا الخلق بطاعته ويحذروا الخلق عن معصيته، إذا كان الأمر لا اختيار لهم فيه ولا مشيئة، ولو كان القدر حجة للمخالفين لم تنتفي بإرسال الرسل؛ لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله لا حيلة للمرء فيها، ومما يدل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال:

«ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة»[1] فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله على ما كتب علينا في اللوح المحفوظ؟ قال: : «لا، اعملوا»؛ - أي: اعملوا من أجل أن تصلوا إلى الجنة وتخرجوا من النار - «وكل ميسر لما خلق، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[الليل٧]»، فمن أراد الهداية هداه الله، ومن أراد الضلال أضله الله، فهدي لاختياره الهداية وأضله الله لاختياره الضلال، فأمر النبي ﷺ بالعمل ونهى عن الاتكال على القدر.

الأمر الرابع: أن الله تعالى أمر العبد ونهاه ولم يكلفه إلا ما يستطيع قال الله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [التغابن: ١٦]، ولو كان العبد مجبرًا على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه وهذا باطل، فقد جاء عمران بن حصين إلى النبي ﷺ

[1] أخرجه البخاري(٤٩٤٨)من رواية علي بن أبي طالب.

فقال يا رسول الله إن بيَ بواسير، فقال له النبي ﷺ: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فصلِّ قاعدًا، فإن لم تستطع فصلِّ على جنب»[1] لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ومن وقع في معصية بجهل أو نسيان أو إكراه فلا إثم عليه يقول النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[2]، وقال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يبلغ»[3]، أهذا دين يجبر العبد على فعل الطاعة أو فعل المعصية، هذا لا يليق بآحاد البشر فكيف يليق بالله رب العالمين.

الدليل الخامس: أن القدر الذي يحتج به من يحتج على معصيته سرٌ مكتوب لا يعلم به العبد إلا بعد وقوع المقدور، وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله فتكون إرادته الفعل غير مبنية على علمٍ منه بقدر الله، وحينئذ تنتفي حجته بالقدر إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه، العاصي الذي يعصي الله يقول بعد معصيته هذا قدر الله علي هل

---

[1] أخرجه البخاري(١١١٧)من رواية عمران بن حصين.

[2] أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨٢٧٣)، والبيهقي (١١٧٨٧).

[3] أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٣٤٣٢) واللفظ له، وابن ماجه (٢٠٤١)، وأحمد (٢٤٧٣٨).

نظر في اللوح المحفوظ وعلم أن الله قدر ذلك عليه، أم أنه تجرأ على المعصية قبل فعلها.

الدليل السادس: أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يصل إليه ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه، فيختار النجاح على الفشل ويختار الغنى على الفقر، ويختار الصحة على المرض، فلماذا اختار المعصية بديلًا للطاعة؟ ولماذا اختار التجرئ على النهي بديلًا عن تركه؟ ولماذا اختار ترك طاعة الله بديلًا من طاعته؟ ويحتج على عدوله بالقدر، فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر، ولا يفعل ذلك في أمور دنياه.

وإليك مثالًا يوضح ذلك: لو كان بين يدي الإنسان طريقان: أحدهما ينتهي به إلى بلدٍ كلها فوضى وقتل ونهب وانتهاك أعراض وخوف وجوع، والثاني: ينتهي به كلها نظام وأمن مستتب وعيش رغيد واحترام للنفوس والأعراض والأموال، فأي الطريقين يسلك؟ أيسلك الطريق الذي يصل به إلى البلد المخوف، إلى البلد الذي فيها

اضطراب، أم يسلك الطريق إلى البلد الآمن الذي لا خوف فيه ولا فزع، بالطبع سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي إلى بلد النظام والأمن، ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريق بلد الفوضى والخوف ثم يحتج بالقدر، ويقول هذا قدر الله علي، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون طريق الجنة ثم يحتج بالقدر؟

مثالٌ آخر: نرى المريض يؤمر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه، وينهى عن الطعام الذي يضره، فيتركه ونفسه تشتهيه كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو أكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر، يعني يتمسك بكلام الطبيب رجاء الصحة والعافية ولا يتجرأ على كلامه، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله به ورسوله وفيهما النجاة؟ ويفعل ما نهى الله عنه ورسوله وفيهما الهلكة ثم يحتج بالقدر؟

الدليل السابع: أن المحتج بالقدر على تركه من الواجبات، أو فعله من المحرمات؟ لو اعتدى عليه شخص فأخذ ماله أو انتهك حرمته، ثم

احتج بالقدر وقال لا تلومني فإن اعتدائي عليك كان بقدر الله، يلقاه رجل فيصفعه على وجه ويتجرأ على ماله، فحينما أن يزود عن نفسه أو أن يعاقب من فعل ذلك به، قال له الفاعل دعني لا تلومني فإني ما اعتديت عليك إلا بقدر الله علي، هل يقبل حجته؟ هل يعفو عنه؟ هل يتركه بدون عقاب؟

فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه، ويحتج بالقدر لنفسه في اعتدائه على حق الله رب العالمين.

ويُذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ رفع إليه سارق استحق القطع فأمر بقطع يده؟ فقال الرجل: مهلًا يا أمير المؤمنين إنما سرقت بقدر الله، فقال له عمر: ونحن أيضًا نقطع يدك بقدر الله.

الإيمان بالقدر له ثمرات جليلة:

الثمرة الأولى: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد على السبب نفسه، تأخذ الدواء ترجوا من الله الشفاء، وتتوكل

على الله في أخذ ذلك الدواء ترد الأمر إلى الله لا إلى الدواء، وإنما تأخذ الدواء سببًا، وتعلم أن وراء السبب شفاء الله عز وجل.

من ثمرات الإيمان بالقدر: إذا وفِق المرء لا يعجب بتوفيقه، ولا يعجب بما حصله بإمكانته وبطاقاته؛ لأنه يعلم أن حصوله على ما حصل إنما هو بفضل الله رب العالمين، وما هو إلا آخذ بالأسباب، وأما التوفيق فالتوفيق لله رب العالمين الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله، فلا يعجب بنفسه ولا يتيه بقدراته، ولا يغتر بطاقاته وإنما يقول هذا من فضل ربي علي.

الثمرة الثالثة: الطمأنينة والراحة النفسية، فلا يتأثر بزيادة ولا بنقصان، لا يتأثر بموت ولا حياة، لا يتأثر بصحة ولا مرض، لا يتأثر بغنى ولا فقر، لا يتأثر بظلم ولا عدل، لا يتأثر بما يجري عليه من أقدار الله، فلا يقلقك بفوات محبوب، ولا يضطرب بحصول مكروب؛ لأن ذلك كله بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض وهو كائن لا محالة وقف عند هذه الآية من أجل أن تطمئن، من أجل أن تستريح،

من أجل ألا تفكر فيما يجري عليك، يقول الله عز وجل: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٢٢]، ما يحدث في الأرض فهو مكتوب مقدر، قبل أن يخلق الله الأرض: ﴿ **لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد: ٢٣]، لا تحزن على ما فاتك، ولا تغتر بما آتاك فإن الذي فاتك بقدر، والذي آتاك بقدر،﴿ **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور** ﴾.

وانظر إلى حال المؤمن برضاه بقضاء الله وقدره يقول النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان

خيرًا له»[1]، المؤمن لا يتأثر بأقضية الله وأقداره لأنه يعلم أن قدر الله كله خير، وقد ضل في القدر طائفتان:

إحداهما الجبرية: الذين قالوا إن العبد مجبر على عمله، وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

الطائفة الثانية القدرية: الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر.

وللرد على الطائفة الأولى نقول بالشرع والواقع، أما الشرع فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة وأضاف العمل إليه فقال تعالى: ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فأضاف له إرادة، وقال سبحانه: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩] فأثبت للإنسان مشيئة، وقال سبحانه: ﴿ **مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا**

[1] أخرجه مسلم(٢٩٩٩)من رواية صهيب بن سنان الرومي.

﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فالذي يجبر العبد على مواقعة المعصية ثم يعاقبه، والذي يجبر العبد على مواقعة الطاعة ثم يثيبه هل هذا يليق بالله؟ إنه لا يليق بإنسان فكيف يليق بالملك العليم العلَّام.

لو أن رجلًا له تجارة أو له مصنع فعاقب المحسن وأثاب المسيء هل هذا يقبل منه، لو أنه إنسانًا أن يفعل وأن يفعل، وأمر غيره ألا يفعل ثم عاقب الفاعل مع أنه الذي أمره، وأثاب التارك مع أنه الذي نهاه، هل هذا يعقل في حق إنسان؟ فكيف يعقل في حق الله عز وجل فهذا دليله من القرآن.

وأما الواقع فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته كالأكل والشرب والبيع والشراء، وبين ما يقع عليه من غير إرادته كالارتعاش من الحمى والسقوط من العلو، فهو في الأول فاعل مختار في بإرادته من غير جبر، وفي الثاني عند ارتعاشه أو عند

سقوطه من مكانٍ عالٍ رغم أنفه هذا فعل ليس له فيه اختيار ولا إرادة.

وأما الطائفة الثانية وهي القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر، فإن الرد عليهم من كتاب الله فالله تعالى خالق كل شيء، وكل شيء كائن بمشيئته وقد بين الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته فقال سبحانه: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [السجدة: ١٣].

وأما العقل: فإن الكون كله مملوك لله تعالى والإنسان من هذا الكون، فهو مملوك لله تعالى ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته.

فيا عبد الله ما تراه من خلافٍ وخصام، وما تراه ضجر وسخط إنما هو لفقد الإيمان بالقضاء والقدر، كان نبيكم ﷺ إذا دخل على أمنا عائشة قال لها: «هل عندكم طعام؟ فتقول: لا، فيقول: إني صائم»[1] وتنتهي القضية، ويرد الأمر إلى الله عز وجل.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا دخل أحدهم بيته فلم يجد ملح طعامه ولا علف دابته كان يسأل الله ذلك، بعد أن يرضى بقضاء الله وقدره ويأخذ بالأسباب، فإن وفق فذلك من توفيق الله، وإن لم يوفق فهذا من قضاء الله.

وهذا عروة بن الزبير رضي الله عنه مثالٌ يحتذى وإمام به يقتدى في الإيمان بالقضاء والقدر، فقد سافر إلى عبد الملك بن مروان ومع ولده وكان

[1] أخرجه مسلم (١١٥٤)، وأبو داود (٢٤٥٥)، والترمذي (٧٣٤) واللفظ له، والنسائي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (١٧٠١)، وأحمد (٢٤٢٢٠).

من خيرة شباب المسلمين، فدخل الولد إلى مكانٍ فيه خيل فهاجت الخيل فقتلته، ولم يعلم بذلك عروة بن الزبير لأنه كان في مرضه فقد أصابته الآكلة في قدمه وأمر الطبيب بقطعها، فلما أفاق جاءه رجل يعزيه، فقال فيما تعزيني؟ قال أعزيك في ولدك، قال: وهل مات ولدي؟ قال: نعم، دهمته الخيل تحت أرجلها فمات، فاتكأ عروة بن الزبير ورفع يديه إلى الله وقال: اللهم إن كنت قد قضيت بموت ولدٍ فقد أبقيت أبناء، وإن كنت قد قضيت بقطع عضوٍ فقد أبقيت أعضاء، اللهم لك ما أحييت ولك ما أمت، ولك ما أخذت ولك ما أبقيت، ولا أقول إلا ما يرضيك إنا لله وإنا إليه راجعون.

الإيمان بالقدر يجعل المرء يعيش مع الله قبل أن يعيش مع قضائه، يعلم أن الله ينظر إليه في سرائه وضرائه، وأن الله يريد منه أن يرى أشياء فيعطيه ليرى بذله وحمده وشكره، ويمنعه من أجل أن يرى صبره ورضاه، فإذا ما أعطي علم أن الذي أعطى هو الله فلهج بذكره واجتهد في أن يكون عند العطاء على مراد ربه، وإذا منع علم أن

الذي منعه الله وما منعه عجزًا ولكن منعه حكمة واختبارًا، فاجتهد أن يرى الله رب العالمين صبره وأن يرى رضاه وتمضي الحياة هادئة، تمضي الحياة آمنة بلا قلق واضطراب، فإن من فقد ولده لم يفقد ربه، وإن من فقد أباه لم يفقد ربه ومولاه، ومن فقد رزقه لن يفقد رازقه، ومن فقد صحته لن يفقد ربه تبارك وتعالى بالذي بيده كل شيء، فيطمئن إلى الله في قضائه ويعلم أن الخير كل الخير فيما قضاه الله عز وجل.

جاء واحد من التابعين إلى أصحاب النبي الأمين يسألهم عن القدر، فقالوا له قولًا واحدًا سبعة من الصحابة قالوا له: لو عذَّب الله أهل أرضه وسمائه لعذبهم وهو لهم غير ظالم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم.

لا تتهم ربك ولكن اتهم نفسك، كانت أمنا عائشة ﵂ إذا أصابها صداع كانت تقول: بذنبي ويعفو عن كثير.

فما من شيء ينزل عليك إلا وعليك أن تتهم نفسك، أنت الذي وقفت بينك وبين مصالحك، أنت الذي تسببت فيما نزل عليك من

ضر، فإذا لم تجد منك شيء، فاعلم أن لله حكمة في قدره فرد الأمر إلى الله وارضى بقضائه وقل: قدَّر الله وما شاء فعل، قَدر الله كله خير.

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة، ويشتمل على أربع مراتب لا يكتمل الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بها جميعًا، قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: من السنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث والإيمان به، ومن لم يؤمن لا يقبل الله رب العالمين كثيرًا كان أو قليلًا.

وفي ذلك يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: والذي نفسي بيده لو كان لأحدِهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله حتى يؤمن بالقدر.

وللإيمان بالقدر ثمرات جليلة وفضائل عظيمة، منها الطمأنينة والراحة النفسية بما يجري على الإنسان مما يحبه، ومما لا يحبه، ويدخل في ذلك الأعمال الاختيارية وغير الاختيارية من أقدار الله تعالى، فيطمئن المرء إلى الغنى والفقر، ويطمئن إلى الصحة والمرض، ويطمئن

المرء إلى العسر واليسر، ويطمئن المرء إلى الزيادة والنقصان لأنه يعلم أن الذي قدَّر ذلك هو الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير.

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: الاعتماد على الله تبارك وتعالى وحده مع الأخذ بالأسباب، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه، وإنما يأخذ به متوكلًا على الله عز وجل، فيأخذ الدواء سببًا وتعلق القلب بالشفاء على الله عز وجل، ويأخذ العمل سببًا للحصول على الرزق متوكلًا على الرازق سبحانه عز وجل، ويعتمد على قوته يأخذ بأسباب القوة التي أمر بها واعتماد قلبه على تأييد الله رب العالمين ونصرته.

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: ألا يعجب المرء بنفسه عند حصوله على مراده؛ لأن حصوله نعمة من الله تعالى وذلك بما قدره له من أسباب الخير والنجاح، وإعجابه نفسه نقضٌ لشكر هذه النعمة: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ** ﴾

[هود: ٨٨]، «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»[١]، «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[٢].

جاء في سير التابعين أن واحد من التابعين ذهب إلى رجل في قضاء حاجة فقال له: يا فلان جئتك في قضاء حاجة فإن قضاه الله عز وجل فلك الشكر، إن جعلك الله سببًا في قضائها، وإن لم يقضها الله عز وجل فلك العذر لأن الله عز وجل لم يشأ قضائها.

فانظر إلى هذا الفقه وهو رد الأمر إلى الله تبارك وتعالى، فالرجل يأخذ بأسباب الولد لا يعتقد أن الولد يأتي من ماءه، ولا يكون الولد من بويضات امرأته وإنما هو الذي يهب الذكور، وهو الذي يهب الإناث، وهو الذي يجمع بين الذكور والإناث، وهو الذي يجعل من يشاء عقيمًا.

---

[١] أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٦٦٦٣)، وابن السني في ((عمل اليوم والليلة)) (٣٧٨) باختلاف يسير.

[٢] الترغيب والترهيب(٣٦١/٤)من رواية علي بن أبي طالب.

بعدما فرغ المصنف رحمه الله من بيان ركنٍ من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر على غير ترتيبه في سياقه في حديث جبريل عليه السلام، ذكر الإيمان بالرسل، ثم ذكر الإيمان باليوم الآخر.

*** فقال رحمه الله: الباعث الرُّسُلَ إليهم لإقامَةِ الحُجَّةِ عَليهم.**

ثم ختم الرسالةَ والنِّذارة والنُّبُوةَ بمحمدٍ نبيِّه ﷺ، فجعَلَه آخِرَ المُرسَلين، بشيرًا ونذيرًا، وداعِيًا إلى الله بإذْنِهِ وسِراجًا مُنيرًا، وأنزَلَ عليهِ كتابَهُ الحكيمَ، وشَرَحَ به دينَهُ القَوِيمَ، وهدى بِهِ إلى الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ.

وأنَّ الساعةَ أتيةٌ لا ريبَ فيهَا، وأنَّ الله يبعثُ من يموتُ، كَمَا بدأَهُمْ يعودون.

الشرح:

فالباعث للرسل هو الله رب العالمين، أيدهم بمعجزاته الباهرة، وأيدهم بآياته البينة، من أجل أن يقيم الحجة على الخلق: ﴿ **رُّسُلًا**

مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فالرسول يأتي إلى الأمة فيصبح حجة عليهم إلى قيام الساعة، فبعثة النبي ﷺ حجة على العالم كله منذ أن بعثه الله إلى قيام الساعة، حجة على العربي والعجمي، حجة على الرومي والشامي، حجة على السوداني والحبشي لأنها رسالة عامة تشمل عمومية الزمان، وتشمل عمومية المكان فهو خاتم الرسل فلا رسول بعده، وهو خاتم المنذرين فلا نذير بعده.

*** قوله رحمه الله: الباعث الرسل.**

الشرح:

أي: ربنا تبارك وتعالى هو الذي أرسل الرسل، والرسول هو الذي يأتي بشرع جديد إلى الناس لتبليغهم ودعوتهم إلى الله تعالى، وأما النبي فهو الذي ينزل رب العالمين عليه الوحي ينزل عليه جبريل أنه قد اصطفاه من دون قومه لإكمال دعوة من كان قبله، فالنبي في بني

إسرائيل كالعالم في أمة النبي الأمين، والعالم في أمة النبي ﷺ يبلغ رسالة النبي بلا تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان، وأما الرسول فيرسله الله رب العالمين برسالة جديدة وبشرع جديد ليبلغ الناس بما كان من زيادة على من كان قبله أو نقصان فيما كان.

وعدد رسل الله تبارك وتعالى ثلاثمائة وبضعة عشر أخبر بذلك نبينا ﷺ فنؤمن بهم جميعًا، ولا نكذب بأحد منهم وذلك لأن من كذّب برسول واحد كان مكذبًا لجميع الرسل، منهم من قصَّ الله سيرته وذكر الله رب العالمين اسمه، ومنهم من لم يقصص الله رب العالمين عن أمره شيء، والغاية من إرسال الرسل إقامة الحجة على الخلق من أجل ألا يكون للناس على الله حجة، من أجل ألا يكون للناس على الله عذر.

وقد ختم الله رب العالمين الرسالات برسالة نبينا ﷺ، وختم الله رب العالمين النذارت بنذارة نبينا ﷺ، والبشارة هي: البشرى بما أعده الله للطائعين، والنذارة هي: التحذير مما أعده الله للعاصين، ورسل الله رب العالمين يجمعون بين البشارة والنذارة.

والنبوة: مؤخذة من النبأ وهو الخبر، والنبي مخبر عن الله وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا، فالرسول من أوحي إليه بشرعٍ جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله، فنبينا ﷺ ختم الله به الرسالات، وختم الله به النبوات فهو آخر المرسلين، وآخر أنبياء الله رب العالمين، لا يبعث رسول من بعده فهو آخر الأنبياء والرسل وخاتمهم كما قال الله: ﴿ **وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وكما أخبر ﷺ عن نفسه فقال: «إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»[(١)].

أنبياء ورسله جاءوا بالبشارة والنذارة، والبشارة تكون للطائعين بالحياة الطيبة في الدنيا وفي الآخرة بجنات تجري من الأنهار خالدين فيها أبدًا، والنذارة هي التحذير والتخويف للعصاة بالشقاء والهلاك في الدنيا والعذاب والنار في الآخرة، وقد جمع الله ذلك في نبيه فقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**

(١) صحيح الترمذي(٢٢١٩)من رواية ثوبان،وصححه الألباني.

﴾ [الأحزاب: ٤٥]، والله رب العالمين جعل نبيه داعيًا إليه بإذنه، داعيًا إلى دينه، داعيًا إلى طريقه، داعيًا إلى طاعته، داعيًا إلى التخلي إلى مما لا يحبه ولا يرضاه، داعيًا إلى بإذنه فما كان لنبينا ﷺ أن يدعي أنه نبي بدون أن يكون الله رب العالمين هو الذي أذِن له بذلك، وقد قال بعض العرب: والله ما جربنا عليه كذبًا في الجاهلية، فما كذب على أحد أفيكذب على الله عز وجل.

أرسل نبيه ﷺ بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى بإذنه وسراجًا منيرًا، فأمر النبي ﷺ واضحٌ ظاهر كالشمس في إشراقها وإضائتها لا يجحدها إلا معاند، فدينه ﷺ يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهداية، ومن الغواية إلى الرشد، ومن عبادة الشيطان إلى عبادة الرحمن.

وأنزل عليه القرآن العظيم وهو الكتاب الحكيم، الكتاب الذي أحكمت آياته، وأحكمت ألفاظه: ﴿ **الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١]، وسبحانه

وتعالى شرح به دينه القويم فالنبي ﷺ بيانٌ علمي لدين الإسلام العظيم، فلو أنك لم تقرأ شيئًا في كتب الفقه ولا كتب التفسير ولا كتب الحديث ولا كتب اللغة، ثم تتبعت هدي نبيك ﷺ وسيرته لاستطعت أن تحوي الدين كله بلا تعقيد ولا تشديد؛ لأنه ﷺ أسوة عملية وقدوة خلقية وسيرة مرضية، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧]، فأخلاقه دينه، وعباداته دينه، ومعاملاته دينه، وعلاقته بربه في معتقده دينه، فمن أراد أن يصيب الحق فعليه بالتمسك بما كان مع النبي ﷺ.

والمسلم يقول في كل ركعة: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: ٦]، والصراط المستقيم، هو دين الإسلام العظيم، وهو هدي النبي الأمين، وهو ما اجتمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، واجتماع الأصحاب حجة لقول النبي ﷺ: «لا تجتمع أمتي على

ضلالة»[1]، فشرح الله به دينه القويم، وهدى به إلى الصراط المستقيم، فمن أراد أن يعرف الصراط المستقيم، فليكن متابعًا للنبي الأمين ﷺ، فدين الله الواضح وطريقه الذي لا اعوجاج فيه هو الصراط المستقيم وهو ينقسم إلى قسمين:

صراط معنوي:

صراط حسي:

فالصراط المعنوي: هو دين الله القويم جملة وتفصيلًا.

والصراط الحسي: هو الصراط الذي ينصب على متن جهنم تعبره الخلائق يوم القيامة بحسب أعمالها، فناجٍ مسلَّم وناجٍ مخدوش، وملقى في نار جهنم.

فمن استقام على الصراط المعنوي في حياة العمل، ثبته الله على الصراط الحسي يوم القيامة، فهو يسير عليه ويمر عليه بقدر عمله، فمن الناس من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر عليه كالبرق أو كالريح

[1] تخريج كتاب السنة(٨٣)من رواية أنس بن مالك،وحسنه الألباني.

المرسلة، أو كأجاويد الخيل، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يلقى في النار وذلك بحسب أعمالهم.

وحاجة المسلم إلى الهداية إلى الصراط المستقيم أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب زاده في الدنيا والصراط المستقيم زاده للدار الآخرة، فهما صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، وأما الذي في الدنيا فهو دينك، وأما الذي في الآخرة فهو جزاؤك، فعلى حسب دينك يكون جزاؤك، وعلى حسب سيرك على الصراط أي: على دين الله في دنياك يكون سيرك على الصراط يوم القيامة، فمن أسرع الخطى في طاعة الله وأبطئ الخطى في معصية الله فهذا هو السريع إلى الجنة البطيء إلى النار، وأما من تلكأ في سيره في صراط الله في الدنيا فهو متلكأ في صراط الله في الآخرة.

وبعد أن ذكر ما ذكر من أمر الإيمان بالرسل، ذكر الإيمان بالساعة أي: باليوم الآخر.

*** قوله رحمه الله: وأنَّ السَّاعةَ آتية.**

الشرح:

والمراد بالساعة القيامة ووقعوها، فوقعوها حق لا مرية فيه، وعلمها عند الله تعالى اختص به الله نفسه، قال الله عز وجل: ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وأخفى الله رب العالمين علم الساعة من أجل أن يترك الناس وآمالهم، من أجل أن يترك الناس وأعمالهم، حتى يكون كل امرئ على حسب ما يجلو في نفسه، فالخائف من الله لا ينتظر الموت وإنما يخاف من الفوت، وأما الخائف من الموت فهو ينتظر الموت في كل لحظة يريد أن يستريح من عناء الخوف، من عناء خشية الفقر، من عناء الذل وهتك العرض فيؤثر أن يموت أو يقتل نفسه على أن يؤثر فيسجن فينتهك عرضه ويؤخذ ماله ويقتل ولده نسأل الله العافية.

فالصراط المستقيم هو الصراط الذي يسير المسلم عليه في سيره إلى الله رب العالمين، وأنَّ السَّاعةَ آتية والمراد بالساعة القيامة ووقعوها، فوقعوها حق لا مرية فيه، وعلمها عند الله تعالى اختص به الله نفسه، قال الله عز وجل: ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فالساعة علمها عند الله لا يعلم متى وقوعها، لا يعلم زمان حدوثها فهذا كله عند الله عز وجل، ولكن لها علامات، علامات صغرى وكبرى أخبر بها النبي ﷺ، ومن المعلوم أنها تكون يوم الجمعة لقول النبي ﷺ: «وفيها ساعة، سوف تقوم الساعة فيها» فالقيامة تقوم يوم جمعة ولكن متى؟ الله أعلم، وبين يدي الساعة علامات ذكرها النبي ﷺ، والساعة تطلق على شيئين، الأول: وهو الموت كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»[1] أي: على موتهم لأن من مات فقد قامت قيامته.

[1] أخرجه مسلم(٢٩٤٩)من رواية عبدالله بن مسعود،وصححه الألباني.

المعنى الثاني للساعة: هو البعث والنشور، أي: بعث من في القبور بل بعث الموتى سواءٌ أودعوا في القبور أو لم يودعوا في القبور، كما أخبر الله تبارك وتعالى عن ذلك فقال سبحانه: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾ [يس: ٥١].

* **قوله رحمه الله: وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا.**

الشرح:

أي: لا شك في قيامها، فقيامها حق دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وإن المرء ليعجب من أولئك الذين يعلمون أنهم سيموتون ومع ذلك لا يعملون، ومع ذلك من الله لا يخافون، ومع ذلك من شدة العذاب لا يرعوون، وما ذاك إلا لموت قلوبهم.

* **قوله رحمه الله: وأنَّ الله يبعث من يموت.**

الشرح:

أي: يعيد الموتى للحياة مرة أخرى، وهذا كله يتناول من دفن في الأرض ومن لم يدفن، فمن مات في البر أو في البحر، من مات في الجو من لم يعثر له على جسد فهذا يبعثه الله رب العالمين، فقوله: يموت يتناول من دفن في الأرض ومن لم يدفن، فكل من مات انتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، وعقيدة البعث أنكرها المشركون، وأنكرها ضعاف المسلمين فرد الله عليهم في القرآن، وقرر هذه الحقيقة في آيات عديدة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُواۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن: ٧].

*** قوله رحمه الله: كما بدأهم يعودون.**

الشرح:

يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ويحشرهم جميعًا كما خلقهم أول مرة عند نزولهم من بطون أمهاتهم، قال ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله

حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ: ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۚ وَعْدًا عَلَيْنَاۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»[1].

والرسل حجة على أقوامهم فيأتي كل رسول يوم القيامة يسأله الله رب العالمين يا فلان بن فلان هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم يا رب فيمسك الله فخذه ويأتي الله بولده أو جاره يقول له: يا فلان هل دخل أبوك هذه الدار بالأمس، أو اشترى منها شيئًا، أو كلمها في هاتفٍ فيكون الأمر على حسب ما كان وهذا كله يعيده الله رب العالمين.

القيامة يعيد الله رب العالمين فيها الأبدان، ويعيد الله رب العالمين فيها الأعمال، ويعيد الله رب العالمين فيها الأقوال، يبعث الله من يموت أي: يعيده للحياة بعد الموت، ليتناول من دفن في الأرض ومن لم يدفن، فكل من مات انتقل من الحياة الدنيوية إلى الحياة البرزخية، وعقيدة البعث أنكرها المشركون فرد الله عليهم في القرآن وقرر هذه

[1] أخرجه البخاري(٣٣٤٩)من رواية عبدالله بن عباس،وأخرجه مسلم (٢٨٦٠) باختلاف يسير.

الحقيقة في آيات عديدة من ذلك: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]، كما بدأهم يعودون يعيدهم إلى الحياة ويحشرهم جميعًا كما خلقهم أول مرة عند نزولهم من بطون أمهاتهم، قال ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»[1]، فالعاقل هو الذي يضع هذا الأمر نصب عينيه من نلت من عرضه، من نلت من ماله، من نلت من نفسه، من نلت من بدنه فإنه سيأتي يوم القيامة يقف أمام الله يطالبك بما له عندك وأنت عارٍ تقف أمامه بلا ستر، تقف أمامه مكشوف العورة عورة الظاهر والباطن، عورة البدن والروح فيا لها من وقفة ولكن أهل الإيمان لا يقفون هذه الوقفة لقول النبي ﷺ: «يمر المؤمن يوم القيامة على

[1] تقدم تخريجه.

المؤمن كصلاة ظهرٍ أو كصلاة عصر، ويمر الكافر أو الفاجر كخمسين ألف سنة مما تعدون»[1].

ويأتي الرسل يوم القيامة يشهدون على أممهم «فيأتي نوحٌ عليه السلام فيقول الله عز وجل: يا نوح هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب بلغت وأنذرت وحذرت، فيقول الله: يا أمة نوح هل بلغ نوح؟ فيقولون: ما بلغ وما حذر وما أنذر، فيقول الله: يا نوح إن قومك يُكذبونك، فهل معك من شهيد؟ فيقول نوح: أمة مُحَمَّد يشهدون، فيأتي المؤمنون من أمة مُحَمَّد ﷺ يقولون: يا رب لقد بلغ نبيك نوح، فيقول الله رب العالمين: وما أدراكم بنوح؟ ولم تكونوا في زمانه ولم تكونوا من أمته؟ فيقولون يا رب: أخبرتنا في كتابك وأنبأنا نبيك ﷺ في سنته ونحن على ذلك من الشاهدين، وذلك قوله: ﴿ **رَبَّنَا آمَنَّا**

[1] أخرجه الحاكم (٢٨٣)، والديلمي في ((الفردوس)) (٨٩٩٣) واللفظ له،وصححه الألباني(٨١٩٣)في صحيح الجامع.

﴿ بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣]»[٢].

فالإيمان بالرسل يشمل الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، كأنك عاشرتهم، وكأنك سمعت كلامهم، وكأنك عاينت تكذيب أقوامهم، هذا من الإيمان بالرسل أن تؤمن بجميع الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله لإقامة الحجة على خلقه، وأن خاتمهم وآخرهم محمدٌ ﷺ أنزل عليه القرآن لهداية إلى الطريق المستقيم، ونؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يعيد من مات إلى الحياة، كما بدأهم أول مرة ويحشرهم إليه جميعًا.

فيا عبد الله أركان الإيمان هي طريق الوصول إلى الرحمن، أركان الإيمان هي سبيل قبول الأعمال، أركان الإيمان هي سبب الخوف من ذي الجلال والإكرام، أركان الإيمان هي سبب الأمان والاطمئنان عند أقدار الله تبارك وتعالى في دنيا الله.

---

[٢] أخرجه البخاري(٣٣٣٩)من رواية أبو سعيد الخدري باختلاف يسير.

وبعد.....

فهذا ما منّ الله به علينا من قراءة وشرح وتعليق على كتاب إرشاد الساري بشرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني وقد تم بحمد الله وقوته وفضله ومنته الإنتهاء منها وذلك في مجالس أولها في يوم الأحد الواحد والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة وألف من هجرة نبينا مُحَمَّد ﷺ الموافق بقدر الله تعالى السادس والعشرين من شهر مايو لسنة تسعة عشر وألفين من التاريخ النصراني وآخرها في يوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة وألف من هجرة نبينا مُحَمَّد ﷺ الموافق بقدر الله تعالى الثاني من شهر يونيو لسنة تسعة عشر وألفين من التاريخ النصراني وذلك في مدينة منوف من أعمال مديرية المنوفية بمصر حرسها الله وحفظها بحفظه الجميل من الفتن والكفر والبدع والضلال وسائر بلاد المسلمين .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ،والحمد لله كما ينبغي لجلال وجه ولعظيم سلطانه ،والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه .

اللهم إنا نسألك أن ترزقنا إيمانًا صادقًا، وعملًا متقبلًا، اللهم هيأ لنا من أمرنا رشدًا، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا، اللهم ارزقنا الإيمان الحق، واجعلنا على عقيدة أهل الصدق، واجعلنا لك ذكَّارين، واجعلنا لك شكَّارين، واجعلنا على الصراط المستقيم سائرين، واغفر اللهم لنا ما كان من تقصير، وارزقنا الإخلاص وهبنا اليقين، واحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واسقنا شربةً هنيئةً لا نظمأ بعدها أبدًا على حوض نبيك الأمين.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.